عزت القمحاوي

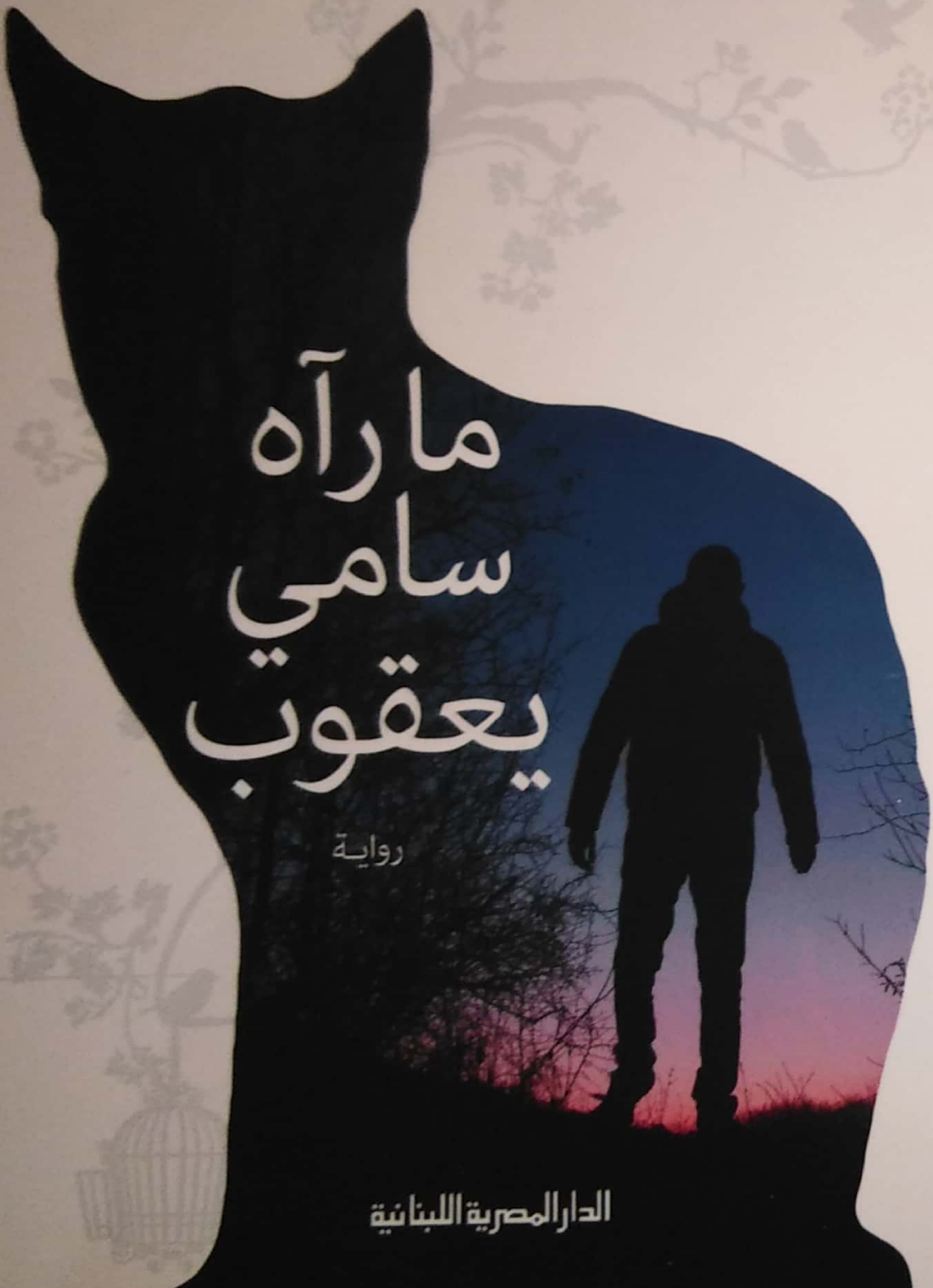

# ما رآه سامي يعقوب

رواية

الدار المصرية اللبنانية

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

عزت القمحاوي

# ما رآه سامي يعقوب

رواية

الدار المصرية اللبنانية

القمحاوي، عزت.
ما رآه سامي يعقوب: رواية / عزت القمحاوي .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.
144 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 217 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 2356 /2019

©

**الدار المصرية اللبنانية**

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

**جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة**

الطبعة الأولى: 2019م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

إلى محمد عزت

ذكرى ليلة طويلة طويلة جدًا.

# 1

**القلـة من المارة الذين تقاطعوا مع سـامي يعقـوب تجاوزوه دون أن ينتبهوا إلى ابتسـامته الواسعة؛ فالناس يكونون أقل استعدادًا وأقل توقعًا للابتسام ساعة الصبح التي يتسلمون فيها حصصهم من الهموم.**

**ولو كان يبكي الآن ما كان ليجد من يقطع عليه بكاءه، لكنه يبتسـم، وتتوسـع ابتسـامته بين خطوة وأخـرى، بينما يمضي إلـى منزل حبيبته، خفيفًا يكاد يطير. سـيقضي النهار عندها، وحيدين لا ينشـغلان بشـيء سوى الحب.**

سـيدخل بيت فريدة للمرة الأولى، لكنـه أوصلها ثلاث مرات من قبل. كانت تؤشر له من بعيد إلى البيت وتودعه بصوت خافت وتمضي مسـرعة لا تلتفت وراءها، أما هو فيتابع خطوها للحظات ثم يسـتدير مبتسمًا.

بيتها في إمبابة يبعد عن النيل بالمسـافة نفسها التي تفصل بين النيل وبيتـه فـي جاردن سـيتي، لكـن الفارق بين الحيين شاسـع. في سـماء جـاردن سـيتي بوسـعه أن يرى اليمـام والعصافيـر الصغيـرة؛ الوروار وأبو الفصاد والكثير من الدوري، والهدهد الذي صار ظهوره عزيزًا.

لا تغامر العصافير بدخول إمبابة، بينما يمكن ملاحظة الطيور الكبيرة تنبش الفضلات على الشاطئ وتكتفي بالتحليق فوق مسطح الماء، حيث يتسع النيل مثل بحيرة ضخمة في مواجهة أبو الفدا. نوارس ضاحكة، فراخ هيش صامتة، وغربان يفلق نعيبها الماء وتنقضّ على العوامات والمطاعم النيلية، تلتقط ما يحلو لها، وتطير في أقواس تربط رأس جزيرة الزمالك بإمبابة، ثم تعود بعد أن تخفي مسروقاتها الملونة في أعشاشها بالأحراش تحت كوبري إمبابة. الحمام هو الوحيد الذي يُحلِّق شمالًا بأمان في اتجاه مخازن الغلال ويعود أسرابًا إلى مهاجعه من الأقفاص الضخمة الملونة فوق الأسطح، وغالبًا ما يحتاج إلى تلويح مُلاكه بالرايات، كي يهتدي كل سرب إلى قفصه.

شوارع جاردن سيتي تظللها الأشجار، واسعة، ممهدة وملتفة كما لو كانت من تخطيط طفل هيأها خصيصًا للعب الاستغماية، بينما تبدو شوارع إمبابة الترابية قاحلة وضيقة كأنها صدوع أحدثها زلزال في كتلة هائلة من الأسمنت والطوب الأحمر العاري. تحت البيوت الكابية تتجاور الورش، والبقالات الصغيرة، ومحال إكسسوارات التليفونات بألوان لافتاتها النيون الزاهية؛ لذلك لم يتوقع أن يكون بالقرب من بيت فريدة ذلك السور الهائل من الحديد المشغول، الذي يؤطر فناءً فسيحًا يضم ثلاثة مبان على الطراز الإيطالي متباينة الأحجام تظلل الفراغات بينها أشجار بونسيانا مترامية الأطراف مبتهجة بزهورها الحمراء. المباني، بطلائها الأبيض والوردي، نظيفة بلا غبرة أو انطفاء

في اللون، كأنها سقطت من السماء هنا، وسط صف المباني المجلل بالغبار والسخام.

**اجتذبت بهجة الأشجار عينيه، ودفعه الفضول للنظر من بين تشبيكات حديد السور، فرأى زوجًا من القطط يتهارش تحت عمود إنارة في الفناء بالقرب من البوابة.**

كان قد تعشى أمس مع فريدة، ودخل معها فيلمًا، وبعد الفيلم تابعا الدقائق الأخيرة في مباراة هامة لمنتخب الكرة واقفين وسط حشد يُطوِّق الجالسين أمام مقهى في شارع جامعة الدول العربية، يضع شاشة عملاقة تبث المباراة. لم يلاحظ أحد من الجمهور المتوتر أن سامي مبتسم حتى في أوقات الخطر على مرمى المنتخب. كان واضحًا كذلك أن فريدة لم يسبق لها الاهتمام بالكرة، لكن حماسة الحشود مستهما، ومع ركلة الجزاء التي ضمنت الفوز عاشا فرحة صعود مصر إلى كأس العالم.

**وها هو يحس بوثبات مضطربة من البهجة يضخها قلبه مع موجات الدم، بينما يعد الدقائق المتبقية على لقائها، وقد منحه انهماك زوج القطط في الحب سعادة إضافية، جعلت يده تمتد إلى تليفونه، كي يلتقط صورة، سيغوي بها حبيبته، وستكون تلك لحظة البدء لأجمل أعياد ميلاده على الإطلاق والخط الفاصل بين حياته السابقة وأيامه القادمة.**

منذ تفتحت عيناه كانت أعياد ميلاده وميلاد شقيقه يوسف تنتهي بشجار بين الأبوين، ولم يكن ذلك شيئًا مسليًا أو مؤلمًا؛ لأنه كان

يتوقع كل شيء. يعرف الألفاظ التي سيتبادلها الأبوان، لحظات الهدوء التي يعقبها استئناف الشجار. يعرف حتى الآنية التي ستكسرها أمه عندما يصل هياجها إلى حده الأقصى، ثم ذعرها من تناثر الزجاج أو القيشاني.

لم يكن توقع سامي لشجارات عيد الميلاد بين الأبوين نتيجة قياس للتالي على السابق، فقد كان يرى المشاجرة بذاتها قبل أن تقع، مثلما يرى الكثير من الأحداث السيئة والجيدة قبل أن تحدث. وهذا هو سره الصغير الذي جعله يرى الحياة عرضًا قابلًا للتكرار؛ فيستقبل الأحداث المبهجة دون لهفة والأحداث الحزينة دون جزع. لكن هذا الطفل الذي لا ينجح شيء في هزيمة ابتسامته كان عرضة لبعض الوساوس التي يُجسِّدها خياله.

كان يُصرُّ، بعد درس السباحة أن الماء دخل من أذنيه وملأ الفراغ بين مخه والجمجمة، ويواصل هز رأسه لإخراج الماء، ويظل هذا الماء هوسًا لا ينساه إلا عندما يستغرقه انشغال جديد، كأن يُطابق بين كفيه، ويصر على أن إحداهما أكبر من الأخرى، أو عندما يُمسك بشعرة بيضاء بين شعره الأصفر، مبتسمًا «انظروا! أنا من علامات القيامة».

ليس في الابتسام الدائم من عيب سوى أنه يشوش الآخرين إلى درجة تمنعهم من تصديقه عندما يشكو، لهذا كان يبالغ في إظهار العرج عندما يستشعر ألمًا في ساقه، أو يرخي ذراعه حتى لتبدو مكسورة إذا احتكت بباب، كما أصبحت هذه طريقته المفضلة في التعبير عن إعجابه بشخصيات القصص التي يقرأها فيحاكي حركاتها

الغريبة. ولأن النظر لا يحتمل المزاح لم تفكر أمه بالتقمص عندما رأته يزر عينيه ليقرأ. أخذته إلى طبيب عيون. حدَّق في جهاز الكشف كما أمره الطبيب وبدلًا من أن يبكي أو يرتجف خوفًا من طلقة الهواء في عينه احتفظ بابتسامته على اتساعها، وتقبل على ذات الحال الإطار الحديدي الثقيل لنظارة الاختبار وأخذ يتابع بشغف تبديل الطبيب للعدسات، ويجاوبه بابتسامة كلها فضول. وأدرك من كلام الطبيب أن علته هي «طول النظر».

عندما تسلم النظارة وضعها على عينيه ووقف في الشرفة ينظر إلى البعيد، وسأل أخاه:

ـ هل ترى هذه النملة؟

أجابه يوسف:

ـ أين؟

أشار بسبابته:

ـ هنااااك، على جدار ثالث العمارة من الناصية.

بعد ذلك مد بصره أبعد فأبعد، وصار يتسلل إلى الشرفة قبل شروق الشمس وقبل الغروب، يجلس ساكنًا يحدق في السماء ويقول إنه يرى يد الله عندما تلم الستارة الكبيرة التي تحجب الشمس وعندما تفردها.

وبينما اعتبره الكبار طفلًا واسع الخيال، أخذ الأطفال يسخرون من كذبه، أما هو فلم يلتفت إلى سذاجة الكبار وسوء ظنون الصغار، وتعايش مع رؤاه وتهيؤاته، منسجمًا مع الحياة بوصفها عرضًا مسليًا.

ظل لسنوات طويلة لا يعرف إلا بشكل غائم معاني كلمات مثل الخير والشر والضغينة. لكنه لم يلجأ إلى الانتقام مطلقًا.

بفضل ابتسامته والتحديقة الدائمة لعينيه الجاحظتين المفتوحتين عن آخرهما لم يكن في حاجة إلى استخدام قوته للدفاع عن نفسه. إذا ضربه طفل لا يشتبك معه أو يشكوه. كان يبتسم فحسب، وكان ابتسامه يسري رعبًا في الفصل وفي المدرسة كلها. ينتهي العام الدراسي دون أن يتعرض له أحدهم مجددًا، ويبقون في ترقب انتقامه المباغت.

عامًا بعد عام، تأكد أن الصغار يمكنهم أن يكونوا أقل فطنة من الكبار.

باستثناء القطط، تفاهم مع الحيوانات والطيور والحشرات بأسهل مما استطاع مع البشر. يحدث أن يُفلت أحدهم رسن كلب كالوحش، يرمح باتجاه الصبي؛ فيصاب صاحبه بالرعب، لكن سامي يرفع يده بابتسامة ترحيب فيتوقف الكلب قبل خطوة منه، ويبدأ في هز ذيله. يُربِّت له على رأسه فيجثو تحت قدميه. لم تتمرد عليه الكلاب أو تسيء فهمه، حتى في الأوقات النادرة التي جف فيها نبع ابتسامته. لا يتمتع بهذه العلاقة المميزة مع كلاب جيرانه في جاردن سيتي فحسب التي يمكن أن يقال لها «أبناء وبنات الأصول من الكلاب» فعندما أوصل فريدة إلى بيتها للمرة الأولى أحاطته الكلاب الضالة مثل حرس شرف، وقادته إلى كورنيش النيل عبر الصدوع التي لم يكن بوسعه أن يخرج منها دون هذه المساعدة.

مـرة نهرتـه أمـه عندما رأته جالسًـا في الشـرفة يلاعـب ذبابة. كان يرتدي شـورتًا، مع فانلة بلا أكمام، مسـتغرقًا في تأمل عرض الحشـرة على ركبته، يتابع حركة سـيقانها السـريعة في مكانهـا، ويتجلد تحت لسع شوكتيها اللتين تغرسهما في بشرته.

لـم يمتثل لتأفـف أليس، ولـم تلاحـظ هي أن الذبابـة كانت ترقص علـى موسـيقى باليه «بحيرة البجع» المنبعثة من مشـغل الاسـطوانات داخل الشـقة. كانـت الذبابة ترتكز بقوائمها الأربـع الخلفية، وتجذف بالأماميتيـن ثم تُبـدِّل الوضع بينمـا ترفرف بأجنحتها وتُرقِّص رأسـها فـي اسـتطالات وارتدادات. كانت ركبته تـكاد لا تتحمل نبش الذبابة، لكنه حافظ على تجلده مسـتغرقًا في مراقبتها، إذ ترقص بتوافق غريب مـع الموسـيقى، بينمـا يتنطـط مايسـترو خيالي في رأسـه يحـرك يديه بإيقاعات اللحن، حتى فقدت الذبابة حماسـتها وتوقفت عن الرقص، ثم طارت.

**لـم يحب سـامي القطط في يوم مـن الأيام، وربما لا يسـتطيع ذلك الحيوان الأناني أن يلاحظ ابتسامته، لكن المعجزة جرت أخيرًا؛ إذ شاء قطان شبقان أن يؤديا عرضهما المثير أمامه، وأثارا رغبته في تصويرهما من أجل فريدة. انتبهت القطة إلى وجوده واسـتدارت لتنظر إليه بعينين جامدتيـن، بينمـا تقـوس ظهرهـا وارتفع مـع ذيلهـا إلى أعلـى مهددًا، ولـم يبـق إلا أن ترميه بحجـر، متجاهلة الذكر الذي أخـذ يدور حولها ويتلمس جذعها بيديه. تمادت القطة في تسـليط نظرتها المتحدية نحو**

**سامي دون أن يكف عن الابتسام رغم أنه انتبه إلى لونها الغامق مثل ليل بلا نجوم. استمر السكون المتوتر لحظات، وكاد ينصرف عن نزوة التصوير، لولا أن الذكر المشمشي الأرقط استدار وعانق الأنثى وقبّلها في فمها؛ فعانقته بدورها، وأخذ سامي يضبط وضع الكاميرا من أجل احتواء اللقطة التي بدا فيها الحيوانان مثل قزمين بشريين، لكنهما سرعان ما افترقا، فأخذ يتربص بهما مجددًا، مفعمًا بفرحة عيد ميلاده الأسعد.**

توقف عن الاحتفال بعيد ميلاده عندما اكتشف معنى الحزن عام 2008، ولا يستطيع أن يعتد بأعياد ما قبل هذا التاريخ، لأنها كانت مشوشة بعروض صاخبة يؤديها رجل وامرأة من عالمين مختلفين.

جاءت الطبيبة أليس شتاينماير إلى مصر عام 1980 في إطار برنامج معونة طبية من الحكومة الألمانية لمستشفى قصر العيني. وصلت في الخامس من يناير. وذات صباح كانت زميلتها المصرية تطالع جريدة الأهرام، عندما أطلعتها على صورة صغيرة في صفحة الحوادث. قالت لها إن الرجل صاحب الصورة، قريبها، وهو مهندس معماري ممتاز، لكنه تجاوز الخمسين دون أن يفكر بمستقبله ناذرًا نفسه لقضية مجنونة. سألتها أليس عن الخبر المصاحب للصورة، فقالت إنه يتعلق بدعوى رد اعتبار لوالده وقد خسرها مجددًا. وبدلًا من أن تشاطرها استنكارها المشوب بالشفقة، أحست تجاهه بالإعجاب، وطلبت أن تراه.

بعد أن جمعتهما هدى على عشاء في مطعم بالزمالك، تكررت لقاءات صبري يعقوب وأليس شتاينماير منفردين، ولم تلمس فيه الجنون الذي وصفته به زميلتها، بل على العكس، رأت فيه رجلًا صلبًا، رقيقًا، وسيمًا، ووفيًا.

عندما دخلت شقته، أحست أنها تمضي في دهاليز مقبرة فرعونية تتوسد جدرانها فوتوغرافيا ورسومات لرجل يشبهه لكنه يبدو ضئيل الجسم وفي عينه شيء من حَوَل. تذكرت زيارتها للأقصر التي قامت بها بعد أسبوع واحد من وصولها إلى مصر، لم تستطع أن تمنع نفسها من المقارنة بين حراس الآثار والمرشدين السياحيين، وبين رسوم وتماثيل الملوك والملكات «هل هؤلاء أبناء أولئك؟!». صبري بدا على العكس من ذلك؛ أكثر هيبة من الفرعون الذي أنجبه.

قادها من غرفة إلى غرفة، وأخذ يُعرِّفها بالمقتنيات على الطاولات وفي الخزائن: المصحف الذي كان أبوه يقرأ فيه لحظة وفاته، الطربوش الأخير الذي ارتداه، القلم الذي هاجم به الملك في مقال تسبب في سجنه، وهو نفسه الذي وقَّع به قرار استقالته من الوزارة احتجاجًا على محاصرة دبابات الإنجليز للملك ذاته في قصر عابدين، البيجاما التي كان يرتديها عندما مات في صباح 23 أغسطس عام 1965، وثلاث جلاليب، وخمسة أزواج أحذية، ودبابيس تحمل اسم الحزب الذي كان ينتمي إليه.

وبينما كانا يخطوان إلى آخر الغرف، هاجمتها نوبة عطس، لم تكن غرفة دفن، لكنها المكتبة الفسيحة المكتظة بكتب يتناول معظمها

تاريخ مصر، تتوسطها طاولة كبيرة مثقلة بأكوام الكتب. بعد الخطوة الأولى استدارت للخروج، بينما لم يزل أنفها مهتاجًا بالعطس.

عندما جلسا أنهت بالكاد فنجان الشاي، إذ يحاصرها الهواء الفاسد المحمل بغبار الماضي، بينما تستمع إلى شرحه المبسط لتاريخ مصر الحديث، وقصة أبيه سالم يعقوب الذي كان خطيبًا وكاتبًا جريئًا ووزيرًا ناجحًا لعدة دورات، لكنه تعرض للإهانة في آخر أيامه، وأُلصقت به تهمٌ بالفساد.

سألته:

- من اتهمه؟

- الضباط الذين أرادوا أن يجللوا كل من كان قبلهم بالعار.

سألته عن حكم المحكمة الذي صدر منذ أيام، ابتسم وقال:

- هو محض الهزيمة السابعة.

لم يكن تفكيرها في صبري بوصفه حارس مقبرة نابعًا من حس ساخر، بل يتطابق مع الواقع الذي فرضه على نفسه في شقته التي يعيش في ركن صغير منها «يبدو أن هدى كانت محقة!» فكرت، لكنها كانت قد تورطت في الحب، وأقنعت نفسها بأن رجلًا بهذا الوفاء سيكون شريكًا مناسبًا، وقبل أن تنتهي بعثتها في 23 ديسمبر عام 1981 تزوجا، ورتبت حياتها للبقاء في مصر.

تمكنت عبر زحف هادئ ودءوب من تقليص حصة أبيه في الشقة إلى النصف، اشترت غرفة نوم جديدة، ووضعت في الصالة طقمًا

عصريًا للمعيشة وتليفزيونًا، على أمل أن تتمكن من تحقيق تقليص مماثل لمساحة خصمها العنيد في قلب ابنه بعد أن تلد طفلًا، لا تريد أن يتأخر كثيرًا، لأنها تشرف على الأربعين ولم تعد لديها سوى سنوات قليلة لحمل آمن.

في 16 فبراير عام 1983 أنجبت الطفل الأول. أراد صبري أن يسميه سالم، لكنها رفضت بإصرار. استعرضت أسماء ذاكرتها، وانتهت إلى يوسف، كان اسم آخر مريض اعتنت به قبل أن تحصل على إجازة الوضع. تكررت المشاجرة في التاسع من أكتوبر عام 1986 عندما جاء المولود الثاني، وانتهت التسوية بين الزوجين باختيار اسم سامي للطفل الذي لم يبك ولم يتوقف عن المناغاة الهنية كهديل الحمام والتجديف في الهواء.

كان صبري يُصرُّ على دعوة أصدقاء أبيه من الباشاوات في المناسبات ومنها أعياد ميلاد الولدين؛ فكان البيت يمتلئ بالرجال المسنين الذين تتصاعد رائحة العثة من ملابسهم، يأتون متساندين على عصيهم، أو على أكتاف شباب من العائلة، يسلمونهم وينصرفون من أمام الباب. وكان على أليس أن تعتني بهم، وتعرف مَن يستسيغ هذا الصنف من الطعام ومن لا يستسيغه، مَن الممنوع من السكر، مَن الذي يجب أن يتناول حبة الدواء قبل أن يأكل، وعندما يبدأون في تذاكر الوقائع، يتحول النقاش إلى مشادات ينتهي الأفضل منها بالخصام، بينما يتسبب الأسوأ في إغماء أحدهم، أو زيادة في الضغط

يجد في إحداها خبرًا من أسطر عن القضية يقصه ويلصق القصاصة وسط صفحة من صفحات الألبوم الكبير، ويكتب تحتها اسم الصحيفة وتاريخ النشر، ثم يستدعي البواب مجددًا ويطلب منه شراء عشر نسخ أخرى من تلك الصحيفة يحتفظ بها لأصدقائه.

لا يختل هذا الروتين إلا في الأيام التي تعقب زيارات رجال أشداء يرافقهم عند انصرافهم ويغيب أيامًا أو أسابيع أو أشهر. أحيانًا يأخذونه قبل جلسة حكم في دعواه، أو بسبب لقاء صحفي باح فيه بما لا يليق، وأحيانًا يستكملون به قائمة اعتقال.

تسارعت وتيرة الزيارات الليلية، لأن الأجيال الجديدة من الضباط لا تصدق أن إقامة احتفال بذكرى ميلاد رجل ميت عمل يستحق أن يكرس له رجل حي حياته، حتى لو كان ذلك الميت أباه. اعتبروا أن ما يرمي إليه هو تحقيق حشد في ميدان التحرير، لن يكون بوسعهم السيطرة عليه، وليس الاحتفال بذكرى أبيه سوى غطاء لخطة الفوضى التي يسعى إلى تحقيقها.

تحيروا في تصنيفه؛ فوضعوه على كل قوائم الاعتقال، وفي كل حبسة كان يكسب أصدقاءً جددًا، وهكذا صار صديقًا للشيوعيين والإخوان والسلفيين وناشطي النوبة والمثليين؛ فترسخت شكوك الأمن بشأنه، وتعبت أليس من حياتها غير المستقرة؛ فطلبت الرحيل بولديها.

كان يوسف في السادسة عشرة، وسامي في الثالثة عشرة. تحمس يوسف لمصاحبة أمه، بينما أخذ سامي يحدق باسمًا في الجدار.

اختار البقاء مع أبيه الذي أحب كل عروضه، بما فيها عروضه المليئة بالإثارة بعد أيام الغياب في الحبس. ولم يكن ذلك كل شيء. كان بوسعه أن يلمس رقة هذا الرجل العنيد. يراه البادئ بالتهدئة في الشجارات مع أليس، يتذكر تمامًا كيف كان يترك كل أعماله ويتفرغ لمن يمرض منهما هو ويوسف، يتربع على سرير الولد، ويحمله في حجره، وتتساقط دموعه على وجه المريض الصغير، بينما كانت أليس تدخل لتجس الحرارة وتخرج.

«لا أكرهها» يقول عندما يفكر بأمه. لكنه لم يحب عروضها ولا العروض التي كان عليه أن يؤديها بأوامر منها. كانت توقظهما هو ويوسف قبل أن يجمع الله ستارة الصباح، تهرول بهما إلى درس السباحة في النادي، ثم تعود بهما إلى البيت لارتداء ملابس المدرسة، وبينما كان يوسف يعود نشيطًا منتعشًا، يمضي سامي برأس مرتج كبالونة مليئة بالماء. بعد الغداء كانت هناك دروس موسيقى ثلاثة أيام في الأسبوع، ثم قليل من الراحة؛ فمراجعة دروس اليوم. الشيء الوحيد اللذيذ الذي يذكره هو العروض المسرحية وعروض الأفلام التي يحضرها أبوه معهم مرة كل أسبوع، وتكون أحيانًا باللغة العربية في المسارح ودور السينما العامة، وأحيانًا بالألمانية في مركز جوتة، وهي العروض الأكثر إمتاعًا؛ فالمكان صغير وعدد الحضور محدود كما في بيت، وهناك تكون أمه مبتهجة، تهمس لأبيه لتفسر له موقفًا. وكان سامي يعتقد أن العربية لغة الكلام، والألمانية لعبة إشارات وألغاز، وكلما اكتسب كلمة ألمانية جديدة غمره الابتهاج باللغز الجديد الذي تمكَّن من حله.

إجمـالًا، كان يمضي إلى عروض المسـرح والسـينما بفرح، بينما تمرد على السباحة، ولم يكن يعير مدرس الموسيقى أذنًا، لأنه يستطيع أن يسـتدعي أيـة موسـيقى في الكـون، حتى أزيـز اليعاسـيب ورفيف الفراشات، كان يسمعه بوضوح عندما يهرب إلى النيل ويقفز من فوق سـياج الكورنيش ليجلس بالقرب من الماء، يراقب تنقلات الفراشات على الشجيرات النابتة في الثغرات بين أحجار البطانة المنحدرة.

عندما ذهبت أمه مع يوسف إلى ألمانيا، أحس بارتياح.

ولـم يكن أبـوه يذكر أليس إلا قليلًا، لكن خذلانه في يوسـف ظل ملتهبًـا. لم يسـتطع التعايـش مع حقيقـة أن ابنه البكر تركـه، إلا عندما عده ميتًا. صار لا يذكره إلا ويسـبق اسـمه بلقب «المرحوم» حتى كاد سـامي يقتنع بأن شقيقه قد مات، لكنه أدرك أن ذلك ليس سوى عرض غاضب من أبيه الذي أصبح يقضي في البيت أوقاتًا أطول، يساعده في المذاكـرة، ويعد الطعام، بينما تأتي سـيدة عجوز مرتين في الأسـبوع، تنظف ما تستطيع من الشقة، وتغسل ثيابهما، وترسل بها إلى الكوَّاء.

وعاد الجد سـالم يعقـوب يتمدد في الشـقة. تزاحمت صوره على الجـدران، وخرج هـواء الماضي من الغُرف التي التزمها سـبعة عشـر عامًا لينتشـر مجددًا، ومع الوقت عـادت رائحة العثة تتصاعد حتى من الأثاث الحديث الذي اختارته أليس عند الزواج. الشيء الوحيد الذي كان يتناقص، هو عدد الزوار من الباشـاوات. وعندما يسأل سامي عن الباشـا الذي غـاب يجيبه أبـوه «الله يرحمه» فيتصور أن الباشـا سـافر

إلى ألمانيا عند يوسف وأليس اللذين أخذت صورتاهما تبهتان في ذاكرته.

بين وقت وآخر كان يتلقى منهما اتصالًا، يعرضان عليه الالتحاق بهما وكان يرفض. صار يرافق أباه في جولاته على دور الصحف ويتردد معه على مكتب المحامي، ويمضي معه في زيارات المجاملة لمن تبقى من الأصدقاء، وبدأ يدرك بعض الفروق بين الحياة والعرض، لكنه رآها طفيفة، لا تتجاوز الفرق بين خطوط الألوان على أجنحة فراشتين تقف كلتاهما على راحة يده عندما يطرحها بين فروع شجيرة ورد، أو الفرق بين كلبين من سلالتين سينتهي بهما المطاف ساجدين تحت قدميه. وظل يؤمن بالإمكانيات اللامتناهية لقدرة الإنسان على الحب «القلب ليس مساحة محدودة يمكن أن يشغلها اهتمام واحد»، وكان بوسعه أن يدرك أن هذا هو خطأ أمه التي أجبرت أباه على الاختيار بينها وبين متابعة قضية أبيه، بينما لا يذكر أنه قد قصَّر معها في موقف، أو تجاهل مناسبة تخصها.

في يوم 9 مايو عام 2008 حكمت المحكمة برد شرف سالم يعقوب، وإلزام الداخلية بالموافقة على إقامة الاحتفال بذكراه، وتوفير التأمين والحماية الكاملين للمحتفلين في ميدان التحرير. انتصار جاء بعد ثلاثة وثلاثين عامًا وخمسة وثلاثين دعوى، بوسع صبري يعقوب أن يتذكر تاريخ رفع كل منها، وتواريخ التأجيل، ولحظات الأمل التي كانت تسبق الحكم المحبط.

اهتز سامي لدموع أبيه، وقد رأى كيف أسقطت الفرحة عشر سنوات من عمره وبدأ استعداده للاحتفال الذي انتظره كل هذه السنين. لم يكن هناك سوى خمسة وثلاثين يومًا على 15 يونيو، ذكرى مولد الجد، وكان التوتر الأمني بعد إضراب عمال المحلة في 6 أبريل لم يزل قائمًا، ولا يحتمل الوضع تجمعًا في ميدان التحرير.

بعد يومين من صدور الحكم جاء الضيوف الأشداء. كان عرضًا مبهرًا في قلب الليل. بينما دخلوا ينبشون الأدراج ويعبثون بالكتب، وفي أثناء ذلك أعد صبري يعقوب ما يحتاجه في هذه المناسبات، وخاصة الأدوية والكتب. حملوا بعض الملفات وحمل حقيبته وسار بينهم شامخًا، الحقيبة في يمناه، واليسرى مكلبشة مع يد أحدهم. توجه سامي إلى الشرفة ونظر إلى الأرض كانوا صغارًا. يبدو أبوه أقصر مما عرفه، والرجال كذلك، رآهم متواضعين مثيرين للشفقة مثل مجموعة من الممثلين المغمورين لحظة مغادرتهم المسرح، يتزاحمون أمام باب الحافلة التي ستقلهم إلى بيوتهم، لا فرق بين من كان أسيرًا ومن كان ملكًا قبل قليل.

أطلقت العربات زخات دخان نتنة بينما أخذت تبتعد. أغلق سامي باب الشرفة وعاد إلى سريره. أخذ يستعيد ما رآه من الشرفة بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة مليئة بالأسى.

عاد إلى تمرين العيش المنفرد، متوقعًا عودة أبيه بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر ليحكي عن الرحلة؛ المحبوسون الآخرون

الذين تعرف بهم، والحكايات التي حملت كلًا منهم إلى الحبس، وما يجري من المشاجرات والمساومات وحالات السرقة ومواقف الشهامة، وكل تفاصيل ذلك العالم المثير الذي يحبه سامي مثلما يحب الأفلام. لكن الأيام والليالي أخذت تمر دون أن يعود صبري يعقوب. كان النهار يمضي على أي نحو، ينفق سامي ساعاته في الدراسة والتمشية على النيل وإعداد الطعام أو تناول الوجبات في المطاعم، بينما كانت ساعات الليل طويلة موحشة، يسمع فيها صراخ القطط في معركة الذكور حول أنثى أو فوق كيس قمامة أمام إحدى الشقق، ما عزز نفوره من هذا الحيوان الأناني الذي يعود إلى أصله المتوحش مع أول صدام.

**لكنه الآن لا يشعر بأية ضغينة تجاه قطين لا يكترثان به؛ بل على العكس تمامًا؛ استعاد في تناغمهما الدفء الذي يغمره في أحضان فريدة حتى تبللت عيناه بدموع الغبطة؛ فغامت الرؤية، واهتز الموبايل في يده.**

كان قد مضى على حبس أبيه شهر وستة أيام وسبع ساعات. نعم بالضبط؛ فقد ورث عنه قوة الذاكرة والدقة في الحساب. في السابعة من صباح 18 يونيو 2008 سمع طرقات صباحية مستعجلة على الباب. طلب منه رجل يرتدي قميصًا أبيض ناصعًا بكل لطف ممكن أن يمضي معه. أمام العمارة كانت سيارة ملاكي تنتظر. جلس سامي مبتسمًا في المقعد الخلفي بين اثنين من الرجال الأشداء، بينما

جلس الرجل الذي طرق عليه الباب بجوار السائق. في مشرحة زينهم فتحوا له الثلاجة. تطلع إلى وجه أبيه النائم في العتمة الباردة ووقف ساكنًا لا يبدو عليه أنه استوعب ما يرى. سحب المرافقون المحفة بالنائم فوقها، فانزلقت من الرف إلى الترولي. هزّه سامي ليتحرك، لكن الجسد المُثلَّج المتصلب أخذ يهتز دفعة واحدة، مجبرًا المحفة المعدنية على إصدار أنين مكتوم.

في تلك اللحظة راح قلبه يهوي حتى صارت روحه بين قدميه، وتبددت ابتسامته. ربما لم يلاحظ الرجال تفصيلًا بسيطًا كاختفاء الابتسامة، لأنه لم يأت بأي من التصرفات المعتادة في مثل هذا الظرف. لم يكن قد اكتشف البكاء بعد.

نُشرت أخبار صغيرة تناولت وفاة المهندس صبري يعقوب، بعضها أشار إلى موته في الحبس دون ذكر سبب تواجده في ذلك المكان، وبعضها وضع صفة «يُدعى» قبل اسمه والبعض أشار إلى أنه الرجل الذي حصل على حكم بالاحتفال بذكرى ميلاد أبيه، لكن صفحات التواصل الاجتماعي أخذت تتناقل قصة موته، كانت النقاشات تتخذ من مقتل رجل تجاوز السبعين دليلًا على الوحشية.

لم تستمر ضجة الإنترنت. سرعان ما انطمرت تحت ضجة جديدة، ولم تجد أخبار الصحف المقتضبة من يحولها إلى قصاصات ويضيفها إلى ألبوم الوثائق، لأن سامي أغلق على نفسه الشقة، وعرف البكاء.

بكى كثيرًا.

على مدى ثلاثة أيام لم يفعل غير البكاء، وهكذا فإن القبضة، التي عصرت قلبه كما تُعتصر ليمونة تالفة، أخذت تتراخى.

في اليوم الرابع حضرت أمه وأخوه. أربكه وجودهما، كان يريد أن يبقى وحيدًا، يراجع بعيدًا عن عيونهما كل ما مضى من حياته. حاولا إقناعه بالرحيل معهما، لكنه رفض، وطمأنهما إلى أنه سيكون بخير، وأنه لن يفعل شيئًا سوى العناية بدراسته.

بعد سبعة أيام من الجدال العنيد، عادا إلى ألمانيا مثلما جاءا. عندما أغلق وراءهما الباب أحس للوهلة الأولى بالارتياح، ثم بدأ إحساسه بالوحدة يتصاعد، حتى صارت تؤلمه كندبة «ألم يكن من الأفضل لو أطعتهما؟».

في هدأة الليل، سمع خطوات أبيه. بدأ وقع قدميه واضحًا على الأرضية الباركيه، ثم أخذ يتخافت نحو عمق الشقة. غادر غرفته بقلب مضطرب ومضى في إثر الخطوات. أدار مقبض باب المكتبة بحذر، رأى أباه على كرسيه أمام الطاولة وسط دائرة الضوء التي يصنعها مصباح القراءة. لم يرفع أبوه رأسه عن الكتاب وينظر باتجاهه كما كان يفعل عندما يفتح عليه الباب. واصل التقدم نحوه؛ فاختفت دائرة الضوء وتبدد معها صبري يعقوب. عادت الغرفة كتلة من الظلام، مد يده إلى زر النور بأنفاس محبوسة. دقق النظر في الزوايا الخفية خلف الخزائن بينما كان قلبه ينبض بعنف. لم يكن هناك سوى الفراغ

الصامت، امتدت مكابح من الوحشة وانحدرت بنبضه إلى هدوء كتيم «لكـن صبري يعقوب موجود هنـا أكثر من أي مكان آخر» قال ليداري خذلانه، وأخذ يستعرض الغرفة التي لم تزل تعاني من فوضى التفتيش. أوراق وكتـب مبعثـرة علـى الأرض وفوق الطاولـة، أدراج منتزعة من أماكنهـا. أخذ يتقدم مستنشـقًا رائحة الغبار المختلـط بالروائح النفَّاذة للـورق القديم وروائح الجلـد المدبوغ التي تفوح من الكتب المُجلَّدة بجلد الغزال.

بدأ في جمع الأوراق وإعادة الكتب التي تعيق تقدمه إلى الرفوف. وبينمـا يفعل ذلك يقرأ سـطرًا من هنا وفقرة مـن هناك، يحاول أن يجد صلـة بين ورقـة وأخرى. نال منه التعب والتهبت عينـاه، ولم ينبهه إلى مرور الوقت سـوى خطوات المبكرين إلى أعمالهم؛ فانسـحب عائدًا إلى غرفته.

بعد سـاعات قليلة من النوم المـؤرق، عاد إلى المكتبة. أخذ يتطلع إلـى الكتب، ويسـتعرض عناوينهـا من كعوبهـا، لا يعرف أيهـا يختار «سـأبدأ من تلك الفخمة» وشـرع في التقاط المجلـدات الضخمة من بيـن الرفوف، كدسـها على الطاولة. أخـذت العناوين تتصـارع للفوز بفضوله، لكن حدسـه المضطرب لا يسـتطيع أن يخبره إلى أيها يجب أن يمد يده، لأنه لا يعرف في أيها سيجد معنى لحياة أبيه.

كالجائع، بدأ بالحجم الأكبر على الإطلاق، وظل يقرأ حتى سـقط رأسه فوق الكتاب.

أمضى أشهر الصيف على هذا النحو، لا يخرج إلا للضروري. ومن كتاب إلى كتاب، لا يهدأ فضوله. أخذت الواقعة الواحدة تتكرر في كتب مختلفة، وتتشابه الوقائع المختلفة في الكتاب الواحد. أحس أن الاختلافات بينها تشبه الاختلاف في ألوان الفراشات، بعضها بألوان مبتهجة وصاخبة، البعض ألوانه مقتصدة، والبعض رمادية، وبمجرد أن يفرك أجنحتها بسبابته وإبهامه، تبهت الألوان وتصبح لطخات مبهمة أو تختفي تمامًا وتترك الأجنحة شفافة كأجنحة اليعاسيب.

توصل في النهاية إلى النتيجة البسيطة: ليس التاريخ سوى عرض، يبدأ لينتهي ثم يبدأ من جديد، لا يتغير فيه إلا أسماء الأبطال الذين يقفون على المسرح، ولا يدركون أنهم أنفسهم الشيء الجديد الوحيد في العرض، وأنهم كغيرهم سينتهون ذات يوم، ويصبحون مجرد غبار كالنسيان.

«لمَ كانت لأبي هذه الحياة؟» لم تسعفه الوقائع المتضاربة بتفسير مقنع، فتوصل إلى إجابة مريحة «ليس هناك من سبب، أبي أحب قضيته، مثلما أحببت الفراشات».

قبل بداية العام الدراسي الجديد، كان قد انتهى من تأمل كل ما قرأه، وكل ما واجهه من الحياة بعد غياب أبيه، وشرع في فرز الواقع عن العرض وتخزين كل منهما في جهة مختلفة من رأسه، وعرف في تلك الفترة بعض الأشياء الجديدة عن أبيه، من خلال ما دونه على هوامش الصفحات وعلى قواطع القراءة من شخبطات وعبارات

تكشف عن لحظات غبطته، ولحظات حزنه. وأكثر ما أدهشه كان عدد الكلمات البذيئة التي يعرفها صبري يعقوب، ولم يسمعه يتفوه بواحدة منها في حياته.

حتى تلك اللحظة لم يكن قد نظر إلى الأرض كما ينبغي؛ شغله تأمل السماء المنبسطة بلا مفاجآت تخرج من زواياها المظلمة. وكان مؤلمًا أنه بدأ يتلمس الحياة عبر قص آخر الخيوط التي تربط والده بالدنيا.

تحول المهندس صبري يعقوب إلى ملف في يد المحامي يضم شهادة الوفاة، وإعلام الوراثة، وتوكيلين من يوسف وأليس لسامي وتوكيل من سامي للمحامي. كلما ازداد الملف ورقة كان أبوه يبتعد عن الحياة خطوة. اطلع على حسابات المكتب، وحصل على حصة الأسرة بعد أن وقَّع على التنازلات المطلوبة. للمرة الأولى يعرف أن مقر المكتب مؤجر مثل شقة السكن، التي احتاجت إلى شهادات الجيران والكثير من الأوراق لإثبات أنه كان مقيمًا فيها مع أبيه كي يستطيع أن ينقل عقد إيجارها باسمه. اطلع على ما يعرفه الناس عن مكاتب الإدارة والمحاكم. اضطر إلى دفع الرشاوى لكي يحصل على الحق، الذي كان من الممكن أن يتبدد بتكاسل أو تلاعب موظف صغير في أرشيف المحكمة أو إدارة الحي.

كان بينه وبين التخرج في كلية الهندسة عامان، وعليه أن ينتبه لدراسته، كما تعهَّد أمام أليس من قبل. استأنف الذهاب إلى الجامعة،

لكنه كان يعود في آخر النهار إلى وحدته، يتحسس غياب أبيه كأنه طرف مفقود من جسده. ولم يكن يعود وحده. كان الباشاوات يعودون، يتزايد عددهم بين ليلة وأخرى، مثلما كانت كتب المكتبة تواصل التكاثر وتتكدس فوق الرفوف وعلى الطاولة، وتمتد أعمدة جديدة منها على الأرض في زوايا الغرفة، لكن أن تصبح البيجاما اثنتين وأن يرى في كل موضع طربوشًا من طرابيش الجد، وأن تمتلئ أدراج خزانات الشقة بشاراته ونياشينه؛ فهذا ما لم يحتمله.

حاول أن يدخل على حياته بعض التغيير؛ فأجرى تجديدات كبيرة في شقته. استغنى عن بعض الأثاث والمقتنيات بالبيع، والبعض بالإهداء، وتكفل العمال بسرقة البعض عند انصرافهم يومًا بعد يوم، وكدَّس ما تبقى في غرفة المكتبة التي أبقاها على حالها. لم تكن المهمة سهلة عليه، فقد كان يشعر أن كل قطعة يستغني عنها هي في الوقت ذاته قطعة من أبيه. ولم يكن تجديد الشقة في سهولة رفع التابلوهات والصور المعلقة على الحائط. كان نزع الورق القديم عن الجدران يخرج بقطع من المحارة وتراب الأسمنت، الأمر الذي تطلب ترميمات كثيرة، قبل أن يشرع في تغيير الأرضيات وسيراميك الحمام والمطبخ ويعيد طلاء الشقة بالألوان الفاتحة.

حصل في النهاية على شقة جديدة يغمرها النور، اشترى غرفة نوم جديدة وأنتريه عصريًا مريحًا، وضعه مكان الصالون القديم. لكنه ظل قادرًا على تحديد أماكن صور سالم يعقوب على الجدار. في أكثر من مرة، يقف ليساعد الست سعدية في التنظيف، يهتف بها

لتراعي الصور بينما تهف الغبار بمنشفة قديمة، لكن السيدة العجوز لا تسمعه، وتستمر في صفع الجدار الذي تراه بالبصيص القليل من النور في عينيها، وتعرف أنه بلا معلقات.

لم يكن يسعى إلى طمس حياة أبيه، بل كان يحاول أن يصنع حياته بالقرب منها، ولابد أن أباه رأى ذلك حسنًا؛ بدليل أن طيفه لم يفارقه. لا يمر يوم إلا ويراه في هذا المشهد أو ذاك من حياته: حماسته عندما يحكي عن مرافعاته أمام المحكمة، انكبابه على الصحف لقص نتف الأخبار التي تتناول الأحكام في القضية. أحيانًا يعود طيفه بصحبة الباشاوات يملأون الشقة بسعالهم وضجة مخاصماتهم، ثم يتبددون. لو لم يُصرَّ على رؤية وجهه في ثلاجة الموتى، ربما بقي الموت في حدوده كعرض غاب بعده البطل في عتمة الكواليس، لكنه للأسف رأى سكونه النهائي بعينيه.

بدأ يهرب من وحدته؛ مرة إلى النيل ومرة إلى السينما ومرات إلى مكتب أبيه من أجل التدريب، وأخذ بعض زملاء وزميلات الكلية يزورونه، بعد أن أدركوا فداحة الفقد الذي عصف بضحكته. لكن شيئًا لم ينجح في حبس الأشباح إلا حب فريدة التي باعدت بينه وبين روح الموت.

لم ينشأ بينه وبين زميلاته في الجامعة أي شيء خاص. في السنوات الكلية الثلاث الأولى، لم يكن لفتاة أن تلتفت لشاب صامت بعينين كبيرتين بطيئتين في الحضور والانصراف، يبتسم في مواقف لا تستدعي الابتسام مطلقًا، وبعد موت أبيه كان شروده سببًا أكبر لعدم

أخذه في الاعتبار كرفيق محتمل، لكنهن وجدن في شقته المأوى مع شباب آخرين، يختفين معهم في الغرف الفسيحة، أما هو فلم يحاول أن يغامر بمبادرات قد تفسد الألفة والغبطة المبهمة التي يشعر بها في وجودهن.

كان يقضي معهن الوقت في مشاهدة الأفلام وتدخين السجائر، وأحيانًا تأتيه إحداهن لكي يساعدها في إنجاز الرسوم الهندسية المطلوبة منها، أو للشكوى من حبيب؛ حيث يعرف سامي كيف ينصت، وهذه ميزة لا يتمتع بها الكثيرون.

**القدرة على الإنصات هي النعمة التي تُمكِّنه الآن من الاستماع إلى خرخرة القطة المغتبطة قبل أن تموء في دلال من أثر عضعضة القط لجذعها. أحكم يده على زر التصوير، وانتظر حتى اعتلى الذكر أنثاه، وأخذ يتحرك فوقها بحثًا عن موضع عفتها الذي هيأته مكشوفًا، بعد أن رفعت ذيلها مائلًا جهة فخذها الأيسر. التقط الصورة، ثم تأملها؛ فأحس أن الكاميرا لم تر ما يراه بوضوح، نقلها إلى وضعية الفيديو، وأخذ يلاحق حركة القطين مستثارًا ضاحكًا، لكن القط لم يتمكن من تسديد سهمه؛ فقفز نافد الصبر، واستلقى تحت عمود الإنارة. أوقف التصوير، ووقف ينتظر الخطوة التالية. تحركت القطة باتجاه القط، تسترضيه بعضعضة بطنه.**

**«كأنهما يحاكياننا» فكَّر مندهشًا؛ فهكذا يتظاهر بالاستغناء أحيانًا لكي تداعبه فريدة التي لم يشعر بالضيق معها مطلقًا، لكنه ينصرف عنها لكي تُقبل عليه وتلمه فيتلذذ بالتأكد من رغبتها.**

قبل أن يلتقي بها عاش سبع سنوات كئيبة؛ فالموت ثقيل، ثقيل جدًا، هو أثقل شيء في الحياة. لم يزحزحه من مكانه إلا فريدة. أصبح كل يوم في حياته فريدًا، بفضل رعشتها عندما يحتضنها، وصوتها الذي له رنين الذهب عندما تحكي له حكاية، بفضل دفئها عندما تُقبِّله. وإذا مر يوم دون رؤياها، تكفي لمعة أسنانها في ذاكرته كي يغفو مغتبطًا.

هو في الحقيقة لا يغفو كل ليلة إلا بعد أن يشعر بها بين ذراعيه. يغلق عينيه ويستحضر انفراج ثغرها بإشراق ابتسامتها التي تهدهده كموج لطيف، وتسحبه إلى النوم والأحلام السعيدة.

أصابه سهمها واستعاد ابتسامته في لحظة يستحيي أن يذكرها، وظل غرامه يكبر حتى لم يعد يريد أن يفارقها، ولأن الحياة لا يمكن أن تستجيب لأمنيات كل هذا العدد الهائل من البشر، لم تتحقق له أمنية العيش معها في بيت واحد حتى الآن، وعليه أن يحتال ليشعر بأنها معه أينما ذهب. يحكي لها كل ما يقع في غيابها، ويصف كل ما يراه، ويدعم حكاياته بالصور.

**ورغم أن القطط آخر شيء تخيَّل أن يصوره، ها هو، يحاول إحكام الكادر على قطين قليلي الحياء في هذا الصباح الجميل؛ ليحمل إليها الصور.**

**مبتهجًا، يُفكِّر في رد فعلها: ستتوهج بشرتها السمراء وتصطبغ بحمرة النحاس، وتلكزه في جنبه، وتهمس «نوتي». لفت نظره التباين في لوني القطين؛ فتذكَّر اللحظة التي ربتَّت فيها بيدها على ظهره لكي يسكن ويتأمل تباين البياض والسمرة في فخذيهما المتشابكين بعمق**

المرآة. الذكرى جعلت ابتسامته تتوسع مثل الدوائر التي تتخلق تباعًا عند إلقاء حجر في الماء، ولم يعد يرى في الكادر قططًا.

عندما انتبه مجددًا إلى الكاميرا، وجد القطين قد شرعا في مطاردة دائرية حول عمود الإنارة. أخذ يلاحقهما بالكاميرا. منتظرًا لحظة هدوء تُمكِّنه من احتوائهما مجددًا.

# 2

ليس من الطبيعي أن يكون كورنيش إمبابة بهذا الهدوء في التاسعة، لكن الكثير من الناس سهروا أمس في مواكب الاحتفال بالنصر على منتخب الكونغو وفاتهم جمال هذا الصباح. ومن غير المحتمل أن تتسع كتب التاريخ لجملة واحدة عن روعة صباح يوم التاسع من أكتوبر 2017، لكنه جميل حقًا؛ فالشمس في غاية اللطف، ولم يعد هناك من أثر لرطوبة الأيام الثلاثة الماضية، بينما تهب نسائم نقية على خلاف العادة حملت القطين على الحب، ساهيين عن الأقدام التي تدب بالقرب منهما مسرعة بين الحين والحين، وعن وجود سامي الذي يلاحقهما مبتهجًا بعدسته من فوق الرصيف خارج السور.

عندما استيقظ كان أول ما فكر فيه شراء باقة ورد. كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف، ربما كانت فريدة لم تزل نائمة في تلك اللحظة، رآها بعيني قلبه مستيقظة. رأى عينيها متسعتين بالفرح، بينما تتلقف منه الباقة.

عندما تبتهج فريدة لا تظهر أسنانها المصفوفة المثيرة من بين شفتيها فحسب؛ بل تظهر في خديها غمَّازتان. سامي يحب أسنانها

ويحب الغمازتين بشكل خاص، وقد خايلته غمازتاها عندما وقف تحت الدوش. وفي المطبخ كاد يسكب الحليب غاب في غبطة عناق فريدة التي ستحتضنه مع الباقة. وبينما شرع في ارتداء ملابسه هجمت الذكريات اللذيذة على أصابعه النشيطة التي تسميها فريدة Incredibles بسبب قدرتها على التسلل بخفة سحرية تحت البلوزة والإمساك بخصرها. وعندما هرول مدندنًا بأغنية على درجات السلم الستة والستين كان لا يزال تحت تأثير دفء خصرها الذي لا تنساه أصابعه أبدًا. لكنه، أمام محل الورد، توقف مترددًا. تمددت ابتسامة ميتة على وجهه، متذكرًا أن عليه التسلل من باب العمارة دون أن يلفت نظر أحد، والورد صاخب.

ليس لعمارة فريدة بواب، لكن من يضمن له ألا يقابل أحدًا من السكان!

هكذا أصبحت صورة القطين البديل المناسب لباقة ورد لم يتمكن من أن يحملها إلى حبيبته. صورة أو بضع صور في ذاكرة تليفونه المختفي في جيبه، لن يشعر بها أحد. وقد رأى في انطلاق القطين دون الانتباه لما حولهما نوعًا من الإلهام إلى ما يجب أن يفعله اليوم. عليه أن يقتحم العمارة واثقًا، ويصعد إلى الطابق الرابع، دون توجس من عيون خلف مناظير الأبواب، ثم يضغط زر جرس الشقة. عليه أن يفعل ذلك «نعم! عليك أن تكون في شجاعة القطط يا سامي»، قال لنفسه مشجعًا، بينما يتأمل القطين المنسجمين في الحب دون وجل.

مع فريدة يعيش خفة الغياب عن العالم، لكن يحدث أحيانًا ما يخرب متعتهما: رنين تليفونها، خطوات مجهولة على السلم، سارينة نجدة أو مطافئ. وللحقيقة فإن من يستجيب لهذه الاستفزازات دائمًا هو سامي نفسه، الذي تختفي ابتسامته ويتحول إلى دودة، وينسج بسرعة خاطفة شرنقته حول نفسه، ولا يعود صالحًا لشيء، ولا حتى للحديث معها حول الأمور العادية: الطقس أو الأفلام، أو التخفيضات على الملابس، أو الطول المناسب لشعرها؛ فهي تتحدث عن الأشياء التي تحبها، وليس تلك التي يمكن أن تجلب المشاكل، مع ذلك يفقد الرغبة في التواصل، ويعجز تمامًا عن متابعة حديثها.

بعد أن تنصرف يهدأ ويتشقق جدار الشرنقة. يستعيد إحساسه بالأمان شيئًا فشيئًا حتى تصبح له مجددًا روح فراشة، لكن فريدة بجواره لم تعد بجواره ليحط على غصنها. يجلس حزينًا وحانقًا على نفسه بسبب الوقت الذي أضاعه عندما كانت بين أحضانه. «جبان» يقول معنفًا نفسه بينما يتأمل خوره في المرآة.

انطبع الخوف على قلبه كوسم في اللحظة التي طالع فيها وجه أبيه المثلج، لكنه لم يعرف الارتباك والخجل إلا اللحظة التي لمس فيها الحب. لم يكن يشعر بأدنى حرج من استقبال زميلاته الطالبات، سواء جئن مع زملاء شباب، أو زرنه جماعة أو منفردات. لم يكن بينه وبين إحداهن أي شيء خاص، وكان يستقبلهن ويودعهن بصخب على السلم كما يستقبل زملاءه الذكور.

عندما وقعت عيناه على فريدة أول مرة جمَّدته الدهشة «لقد عشت هـذا من قبل» وأحس أن الحياة عـادت عرضًا لطيفًا وأنه لم يفقد ملكة رؤية الأشياء قبل وقوعها.

كان متأكـدًا مـن أنه يـرى النداء الـذي أطلقه ذلك الوجـه من قبل. استشـعر شـيئًا حـارًا، أقـوى من الألفـة التـي كان يستشـعرها بصحبة الإنـاث. وعندمـا دعاهـا بعـد ذلك إلى شـقته للمـرة الأولـى، جلس بجوارها على الكنبة يبتسم بعصبية، كان يحس نفسه مخادعًا، وأنها لم تقبل الدعوة إلى شقته إلا بدافع الإشفاق عليه من وحدته التي بالغ في وصفهـا، لكنها هي التي قبَّلته أولًا. باسـته على خـده الأيمن، وعندما همّت شفتاها بالانتقال إلى الخد الآخر تعثرت في شفتيه؛ فانطلق ولم تعد تستطيع أن توقفه عند حد. أطاعته ملابسـها وتخلت عنها بيسر، فأصابتـه دهشـة طفل تمكَّن مـن تشـغيل لعبته، وعـرف أقصى حدود المتعة، ثم عرف الخجل والقلق من مراقبة الآخرين.

عند انصرافها، مضى معها يودعها. خفق قلبه عندما مر بأبي شـفيع البـواب، على الرغم من أنه لم يعد بوابًـا بالضبط، بل يبدو وكأنه يُمثِّل دور البواب في فيلم أو مسرحية.

ينادونـه «الحـاج أبـو شـفيع» وهو لـم يحج، لكنهـا المكانـة التي يحصل عليهـا المعمرون حتى لو كانوا فقـراءً ولا يملكون ما يدفعونه من أجل رحلة الحج. عندما بلغ أبو شـفيع السـن التي يجب أن يكون فيها «الحاج أبو شفيع» تعاون السكان على عمل خير لم يكلفهم شيئًا.

صاروا ينادونه هكذا، باستثناء السيدة العجوز التي تسكن في الشقة المقابلة لسامي، فهي تناديه باسمه المجرد. تخطت ليلى هانم «تيتة ليلى» التسعين بعامين، ولابد أنها كانت امرأة ناضجة، عندما جاء حسن شابًا من بلدته في ريف الفيوم. ظلت الوحيدة إذن التي تناديه «حسن» بينما يمنحه الآخرون درجة «حاج» وينادونه باسم ابنه البكر، صديق سامي القديم الذي لم يعد يظهر في العمارة.

سواء كان اسمه أبو شفيع أو حسن؛ فهو يجلس أو يستلقي ملتحفًا بطانيته على الدكة وراء الباب. كف منذ سنوات عن سؤال الطالعين إلى العمارة عن وجهاتهم، لأن نظره لم يعد يساعده على فرز السكان من الغرباء، وهو يعرف أن اعتراض ساكن في مدخل عمارته من الأشياء التي لا تُغتفر، ولم يعد كذلك يقوى على العمل، ولهذا تدبَّر مجلس العمارة سيدة خمسينية تأتي لمسح السلم يوم الأربعاء وكنسه يوم السبت، بينما تصل المشتراوات مع صبيان التوصيل التابعين للبقالات والمطاعم والصيدليات.

بالنتيجة لم يحسب سامي حسابًا للرقباء، إلا بعد أن أصبحت لديه علاقة حب جدية، فيها ما يحدث بين الرجل والمرأة، وأصبحت نجاحات لقاءاته مع فريدة مرهونة بالتأكد من أن أحدًا لم يلمحها عند صعودها بما في ذلك أبو شفيع الذي يجب أن يكون مستغرقًا في النوم لحظة عبورها بهو العمارة.

يعرف سامي دبيب أقدام كل جار من جيرانه، لكن تظل الأقدام الغريبة على السلم وخرخشات المصعد القديم، وسارينات المطافئ والإسعاف مصدر قلق مضاعف، بينما تتصرف فريدة بهدوء وثقة بعيدين عن التوجس، تتحدث بطبيعية بصوت عال بينما يرد عليها بالهمس، وتفتح شُبَّاك المطبخ في مواجهة شُبَّاك الجيران؛ فيهرع إلى إغلاقه.

تقتنص فرص زيارته، في الصباح الباكر بعد تسليم طفلتيها للمدرسة، ولا تهاتفه إلا عندما تصبح في الجوار، أحيانًا يرد عليها ويستأنف نومه، ليفاجأ بها بعد ذلك واقفة برأسه تتأمله.

عندما تأتي بخضراوات طازجة لتطبخ له الأشياء التي لا يقدر الرجل العازب على طبخها يلازمها مستفسرًا عن كل شيء، ثم يبدأ في محاكاتها. علَّمته لف أصابع محشي ورق العنب، وجرب للمرة الأولى خرط الملوخية الخضراء، وشم معها أمام النار روائح جديدة تختلف عن رائحة الأومليت النفَّاذة ودخان شرائح الدجاج المشوية على الجريل. يستنشق بعمق روائح ما يطبخان، ويحبس في صدره أبخرة الألفة التي تهدهد روحه وتُهيِّج حواسه، يطوِّق فريدة ويُقبِّلها أسفل أذنها فتتقافز مثل حبة فشار تُطرقع فوق النار، وتلتفت إليه نصف التفاتة فيرى غمَّازة مبتسمة، بينما تكون يداها مقيدتين بطبق وإسفنجة التنظيف أمام حوض المطبخ.

**من ذاكرة الشم في أنفه، هبت عليه رائحة المحشي الحمضية المميزة، بينما يتابع سعادة القطين. أخذت الأنثى تتسلق عمود الإنارة، ويداهمها الذكر قبل أن ترتفع ويكبشها بين فكيه ويطرحها أرضًا، ثم يشرع في عضعضة فروتها.**

يتصرف القطان بعفوية جسديهما، وهذا بالضبط ما يتمنى أن يعيشه مع فريدة اليوم، بعد أن تدبرت أمر رحلة لطفلتيها مع صديقتها التي من المفترض أن تكون أتت مبكرًا من هليوبوليس وأخذتهما مع ابنها إلى النادي. وهو الآن ينتظر مكالمة فريدة في أية لحظة، لتأذن له بالصعود قبل أن تفتح الورشة التي بأسفل العمارة بابها. طلبت منه أن يكون مستعدًا بالقرب من بيتها عند التاسعة، لتتحين لحظة هدوء حول هذا التوقيت لتهاتفه كي يصعد. وصل بالقرب من البيت قبل التاسعة بثلث ساعة، تأكد من رقم المنزل بطرف عينه وأكمل طريقه مسرعًا، كأنه يمضي إلى موعد مهم، نظر إلى السماء الصافية، ورأى سرب حمام صغير يُحلِّق شرقًا باتجاه النيل، سار في الاتجاه ذاته، وبعد انعطافة قصيرة وجد نفسه في مواجهة الكورنيش. فكَّر أن الوقت المتبقي لا يكفي للبحث عن مقهى ينتظر فيه؛ فأخذ يتمشى متمهلًا على الرصيف الملاصق للبيوت، يستكشف المنطقة؛ وفجأة انبثق هذا البناء أمامه كإلهام.

**أخذ يتربص بالقطين، ليلتقط الصورة في لحظة ثبات، ولم تلبث تلك اللحظة أن جاءت. وقفت القطة مستكينة للقط الذي بدأ يتمسح**

**بهـا. أحكم عليهمـا الكادر، لكن القطـة المنمنمة اختفـت تحت القط الضخـم، وأصبـح ما يظهر منها في الكادر لا يكاد يُرى. لمس الشاشة بإبهامه وسبابته وأخذ يباعد بين إصبعيه لتكبير التفاصيل. عندما أعجبه الحجـم وبـدت الصورة واضحـة. التقم الذكر رقبـة القطة. خفق قلب سـامي، ولمعت عيناه؛ فهذا هو الموضع الذي لا تحتمل فريدة تقبيلها منه. تأخذ بالتملص من حضنه بمجرد أن تستشـعر تحرك شـفتي الغدر باتجاه رقبتها.**

بالحـدس عـرف آدمُ امرأتَـه حـواءَ، بينما كان لدى سـامي أكثر من حدسـه الخاص وشـوق حواسـه عندمـا التقـى بفريدة. ليس سـاذجًا ليعتـرف لهـا بأنـه شـاهد بعض أفـلام البورنـو، وقـرأ كتبًا عن أسـرار الحياة الزوجية، واسـتمع إلى حكايات زملاء في الجامعة والعمل عن مغامراتهـم، كما عرف ذات يوم تفاصيل أكثـر مما يلزم، راق لإحدى زميلاته في الجامعة أن تحكيها له عن خصوصية علاقتها بشاب حصل على عذريتها وتركها فجأة دون مبرر أو اعتذار.

وهكـذا؛ فبمجـرد أن شـجعته فريـدة تصـرف بمـا يليـق برجل في الثلاثيـن، حتى ظنت الأرملة الشـابة أنه دنجوان يعـرف أكثر كثيرًا مما تعرف، وقد أسعده ظنها جدًا جدًا وملأه ثقة وزهوًا. لكن فكرته العامة عـن الجنس أفادته فـي معرفة الفرق بين فريـدة وغيرها؛ فهي تتصرف بوحـي من رغبتها المخلصة، تحتضنه بكل خلية فيها، وتشـدد قبضتها عليه؛ فيسمع صخب قلبها، ويتأكد أنه نال حظه من السعادة.

طوت بدفئها كل الحزن، وأثبتت له أن الواقع يمكن أن يكون أجمل من عرض فني. عادت ابتسامته تظلل وجهه، ولم تستهجنها فريدة أو ترتاب منها، بل أحبتها.

هي تلقائية مثله، بل أكثر، ورغم ذلك لا تستطيع التخلي عن تهذيبها حتى عند ذروة النشوة. شجعه ذلك على الهجوم، مبتهجًا باكتشاف طاقات وقاحة في نفسه لم يستخدمها من قبل. أخذ يجرب معها الكلام البذيء الذي تعلمه من شتائم الشوارع وتعليقات أبيه الغاضبة في حواشي الكتب ومن صيحات الأفلام السرية، يطلب منها أن تردد وراءه، لكنها تتلعثم، وتغمض عينيها، وتومئ بهزات من رأسها، وتقول بتوتر «نعم، هو ذاك» فتغمره السعادة.

لا يحب البذاءة، ويكاد لا يحسها، لكنه يستمتع بالتفوه بها لأنها حالة الغش الوحيدة التي أقدم عليها في حياته، وأصبحت تغذي إحساسه بالتفوق.

«أليس تهذيب فريدة هو خجل العذراء الذي قرأت عنه في كتاب ليلة الزفاف؟» تساءل ذات مرة، ودفعه ذلك إلى تطوير استعراض حنكته وتأكيد قيادته. أخذ يناديها «عذرائي» فتلمع عيناها بالبهجة.

ذات مرة، بينما يضطجعان مهدودين وراضيين، قال لها إن وصفه لها بالعذراء ليس مبالغة، بل إنه لم يقل سوى ما يحسه.

وكزته في صدره بدلال:

- اسكت، اسكت، عذراء بطفلتين؟

ـ لأنهما اثنتان؛ فقداستك ضعفان.

شددت قبضة ذراعيها عليه، وشابكت قدميها بقدميه، وهمست:

ـ شايف التناسق؟

كان وجهه لصق وجهها، لا يرى شيئًا لكنه يحس بصمة جسدها تدغدغ جلده من الجبهة إلى القدم.

ردّ هامسًا:

ـ جدًا.

مد ذراعًا تحت خصرها، وطوقها بالأخرى، وحملها فصارت فوقه، شدَّد إحكام ذراعيه عليها تطبيقًا عمليًا لحالة افتراضية على التليفون إذ يحلو لها أن تهديه «حضن تفعيص» ككلمة وداع. سكنا على هذا الوضع لحظات بعيون متعانقة على اتساعها، ثم أرخى قبضته قليلًا، وبرم نفسه، حتى أراحها بجواره. خللت بأصابعها شعره، وهمست:

ـ تعرف؟ أنا عذراؤك فعلًا.

ـ هييه! اعترفتِ؟

هزت رأسها بسرعة هزات متتالية، بينما أغمضت عينيها وقالت هامسة:

ـ لم أعرف هذا إلا معك.

ـ أي هذا؟

ـ يووووه! يعني، أقصد، أقصد...

أحس بنشوة الظفر وقد ضيَّق عليها الحصار في ركن تهذيبها اللذيذ.

ألح، يستل منها الكلمات:

ـ تقصدين ماذا؟

ـ أقصد.. أقصد الصرخة الشديدة تلك، والبرق الأبيض الذي أراه يملأ الغرفة.

تتحدث فريدة عن الشيء الذي يحسه في اللحظة ذاتها، عن غياب الوعي الذي يحول كيانه إلى نور خفيف كالخلود، منفلت من أحزان الذكريات وثقل اللحم والعظام، لكنه سألها كالمندهش:

ـ ولا مرة؟!

ـ لم أعرف أصلًا، أصلًا، أن هذا المستوى موجود.

ـ كيف؟!

ـ لأن المرحوم لم يكن «نوتي» مثلك.

أحس بالزهو، وأخذ يتلمس جسدها بأصابعه كما يفعل دائمًا، ويشعر بتفززها تحت يده، دون أن تتوقف عن الكلام، كان صوتها خافتًا، لكنه أكثر من كافٍ لإسماع رجل يسمع رفيف أجنحة فراشة. قالت إنها لم تقل للمرحوم «أحبك» التي تقولها الآن بسهولة، ولم

تتحدث من قبل بعفوية في كل ما يخطر ببالها كما تفعل الآن. فجأة أحست بأنها تجاوزت في حق الرجل الميت، فقطعت استرسالها، ورددت كالمعتذرة:

ـ لكنه كان طيبًا، كان طيبًا جدًا.

أمسك بيدها وقبَّلها، دون أن يجد ما يقوله.

جذبته مجددًا نحوها، وقالت:

ـ كثير مما نفعله، عرفته معك للمرة الأولى.

**بينما يلاحق حركة القطين على شاشة التليفون، هتف حانقًا «من أين تستمد هذه القطة دلالها الماسخ؟!» أخذت تواصل الإفلات، والذكر يسكن للحظة، ثم لا يلبث أن يذعن للتحدي، ويستأنف محاولاته. أحس بالإشفاق على الذكر، وفكَّر «لو كنت قطًا ما كانت لتعجبني».**

لكنه ليس قطًا. والقطط ليست حالة خاصة في قسمة الجمال. كل ذكور الحيوانات والطيور أجمل من إناثها، وهذا لا يُغيِّر معادلة الحب، كما أن الحيوانات ليست ملزمة بمقاييس الجمال التي وضعها الإنسان، بعد آلاف من السنين تقلَّبت فيها معاييره الجمالية، بسبب اختراع الملابس التي تحافظ لشريك الحب على بعض المفاجآت السعيدة والخدع المريرة. تذكَّر بهجة اللحظة الأولى التي جرَّد فيها فريدة من ملابسها ورأى جسدها سخيًا كموزة ناضجة. فكَّر «الملابس إنجاز إنساني جميل، وأجمل ما تكون عندما نخلعها».

كانت تضع حجابًا محبوكًا، وترتدي بلوزة بيضاء فضفاضة فوق تنورة سوداء بكسرات، يستريح طرفها السابغ على حذاء أسود خفيض دون كعب. طرف القميص الفضفاض ملموم داخل التنورة، يكشف دقة خصرها. جلسا متجاورين لدقائق. كانت طبيعية وعلى راحتها تمامًا؛ بينما يتحايل ليخفي اضطرابه. اقترحت أن يعدا شيئًا يشربانه. قادها إلى المطبخ، ووقف إلى جوارها يتأملها إذ تتلمس طريقها إلى الأشياء دون أن تسأل. عندما عادا بالشاي، جلس إلى جوارها مجددًا، وبدآ يشاهدان فيلمًا، لكن علاقتهما بالفيلم انتهت عندما وضعت شفتيها على خده.

لا يتذكر تلك اللحظة إلا ويحس الفرحة تشرح صدره بكل قوتها. لم يكن يتوقع أن تطوي طبقات الملابس هذا الجسد المنحوت برهافة، ولا يعرف لماذا ترتدي على هذا النحو؟ هل تفعل ذلك من باب التناغم مع بيئة محافظة وجدت نفسها مجبرة على العيش فيها؟ هل تتعمد الإساءة لجمالها أم هي زيادة ثقة؟

لن يعرف السبب، لكنه متأكد أنها تستطيع أن ترتدي على نحو أفضل. أحيانًا يأكله فضول رؤيتها في فساتين تبرز أنوثتها، لكنه يحاذر من التعليق على ملابسها، مفضلًا أن تبقى هكذا، مثل شرنقة متقشفة الجدار، وحده يعرف جمال الفراشة الغافية بداخلها، ويرى في كل مرة انبعاث الحياة لحظة الرفرفة التي تنشر الفرح في كل جوارحه؛ فيتمنى أن ينصهر معها في جسد واحد ولا ينفصلان أبدًا.

لا تكـف أصابعـه عـن متابعـة الارتقـاء والانحدار فـوق مويجات جسـدها المنسـابة في نعومـة إلا عندما تغمره موجـات النوم أو عندما يشـعر ببداية إبحارها نحو نعاسـها المغتبط. انطبعت بصمات جسدها فـي يديه، وأصبح بوسـعه أن يُغمض عينيه ويحـس بها تتفتح في راحة يده.

ذات مرة أمسكت بأصابعه، وأزاحت يده برفق، وقالت:

ـ يبدو أنني بالنسبة لك مجرد رغبة.

لكنها تعرف أنه أحب الغامض فيها قبل أن يحب الواضح الملموس، ويومًا بعد يوم صار يحب كل من له صلة بها، حتى المرحوم وأسرتها التـي لم ير أحدًا منها بعد، وابنتيها اللتين لم يرهما إلا في الصور، لكنه يعرف أنه يحبهما، ويريد أن يكون لهما أبًا بديلًا.

**قلبه مفعم بفريدة، ويداه مشغولتان بالقطين، فكَّر «جعلتني أتصالح حتـى مع القطط» ابتسـم برضًـى، وأرخى يـده بالموبايـل، وأخذ يتابع ضجر القط الذي تخلى عن اسـترضاء القطة، واسـتدار فجأة. بدت في عمق عينيه الزجاجيتين شراسة أصله الوحشي.**

**أحس سـامي بأصابع قاسـية تنغرز في صدره، تشـقق قلبه بالخوف الجليـدي، وتلفَّـت فلم ير أحدًا، لكن إحساسـه بالقلق تعمَّق. نظر إلى السـاعة، وجدها تجاوزت التاسعة بعشـر دقائق «كان من المفترض أن تتصل في التاسـعة». عاد إلى تصويب الكاميرا نحو القطين في محاولة لتبديد مخاوفه.**

هـي، وليس أحدًا غيرها، من علَّمته أن الهزيمة لا تأتي من ضربات الحياة مهما كانت غاشمة، بل تنبع من القلب.

على خلاف صديقاتها اللائي سعين إلى الارتباط بشباب مرحين من عائلات مستريحة مالت إلى المرحوم، رأت في مظهره المهموم جدية أحبتها «كنت أتطلع إلى تغييره، لم أعتقد أن تلك ستكون مهمة مستحيلة». هو الذي فرض عليها ما يسميها «عاداته وتقاليده» لم تنسجم معه ولم تشأ أن تفشل في زواجها.

حكت لسامي بلا ضغينة أو ألم، عن حياتها الزوجية التي لم تطل، والتي كانت في كل الأحوال أفضل من الوقوع تحت تدخلات عائلته بعد موته، وخصوصًا حماتها التي حذرتها «لن نسمح بأن يدخل على ابنتينا رجل غريب» وكان هذا جديدًا وصادمًا لفريدة.

كان مذهلًا أن تتمكن المرأة من ذكر كلمة «زواج» قبل أن تمر ثلاثة أيام على وفاة ابنها. رأت المرأة القروية دهشة فريدة؛ فقالت بحسم «اسمعي، لن تحزني على ولدي أكثر مني، وأنا أقول لك من الآن ما سأقوله بعد ذلك، اختاري من تريدينه من إخوته، أو انتبهي لتربية ابنتيك، لكن رجلًا غريبًا لن يدخل على البنتين».

لفترة طويلة تحاشى سامي أن يخبرها عن لحظة افتتانه بها، لكن ما ذكرته عن حماتها جعله يدرك أن الحياة تحتمل كل شيء. اعترف لها أنه أوشك أن يحتضنها، على باب دار المناسبات، عندما ذهب مع أتوبيس الشركة لتقديم واجب العزاء في زوجها.

كان الرجال قد دخلوا إلى القاعة الرئيسية، وتوجهت النساء إلى مدخل جانبي. عند المغادرة، وقف الرجال ينتظرون خروج زميلاتهن، وخرجت الأرملة تودعهن على الباب. كانت مجللة بالسواد من رأسها إلى قدميها، وما يظهر من وجهها نحيل وشاحب وحزين. أخذ يتقدم نحوها محدقًا. أوشك أن يحتويها في حضنه لولا أن سمع من يناديه؛ فأومأ لها بتحية مرتبكة، واستدار راكضًا صوب الأتوبيس.

تحققت رغبته بعد سنة وثلاثة أشهر وخمس ليال، لكنها هي التي بادرت بتقبيله، وعندما تخلت عنها ملابسها صالبت يديها فوق نهديها، تحميهما من شيطنات أصابعه الـ Incredibles التي تمكنت في غمضة عين من فك المربوط والمشبوك دون أن تعوقها التململات.

كانت قد بدأت في التردد على الشركة بعد أيام العزاء لإنهاء إجراءات صرف مستحقات المرحوم. حصل على رقم تليفونها، وأخذ يتابع معها الإجراءات بحماسة لم يعرفها قلبه من قبل، وكان عليه أن يُطلعها في كل مرة على العقبة التي سيحلها، ثم يسألها إن كانت تحتاج شيئًا.

عندما تُذكِّره بالطريقة التي حاصرها بها، تكمش رقبتها بأصابعها، لتقول له إنها شعرت بالاختناق من إلحاحه، بل ومن ابتسامته التي لم تجد لها تفسيرًا حسنًا في ذلك الوقت، ثم تبتسم وتقول:

ـ لكن بصراحة، لم يتطوع أحدٌ غيرك بالمساعدة!

بعد شهرين تمكنت من صرف المستحقات، لكنه داوم على مهاتفتها، وكانت المكالمات بينهما تمضي في الطريق القصير نفسه.

«أحببت أن أطمئن عليك.. شكرًا على لطفك. هل تحتاجين أي شيء؟ خير ربنا كثير، أشكرك» أخذت تسد المنافذ التي يمكن أن يتشعب إليها الكلام، لكنها لم تتمكن من مواصلة الجمود بعد يوم الورد.

تقول، عندما تصل إلى وصف اللحظة الأولى التي عرفت فيها أنها تحبه:

ـ لن تستطيع أن تتصور أبدًا ما حدث لي في تلك اللحظة.

يصر على أنه أحس بشيء خاص في اختلاج صوتها منذ البداية، عندما عرض مساعدتها في إنهاء إجراءات المعاش، لكنها تتمسك بأن يوم الورد كان أول إحساسها به.

كانت تمضي في شارع قصر العيني عندما لمحته يحمل باقة صغيرة من الليليوم الأصفر.

- رجل يشتري الورد!

تستعيد اللحظة بكل دفئها، ثم تمسك بيده وتضغط أصابعه:

- كأنك اشتريته خصيصًا لتغويني.

تصمت لتتذكر ترددها في التوقف لتحيته في تلك اللحظة، ثم تشرع في وصف رد فعلها عندما عرض عليها متلجلجًا الجلوس في مقهى قريب:

- للوهلة الأولى اعتبرت الدعوة استمرارًا لسلوكك اللحوح.

ـ مع ذلك استجبت لدعوتي!

تومئ موافقة.

يومهـا، سـارت إلـى جواره علـى الرصيـف الضيق، وبيـن الحين والحين كانا يضطران للسير أحدهما وراء الآخر؛ فينقطع الحديث، ثم يستأنفانه عندما يقل الزحام ويعودان متحاذيين.

جلسـا على كرسـيين متواجهين، وبينهما باقة الورد على الكرسـي الثالث.

تتذكر شعورها في تلك اللحظة؛ فتهمس:

ـ تعرف! كنت على وشك أن أحضنك.

هـي التي جرته للحديـث عن طفولته، عن الباشـاوات الذين كانوا ينسـحبون فـي كل مرة إلى نفق الموت، عن أسـرته التي لـم يتبق أحد منهـا. ترقـرق الدمع في عينيهـا، لا تعرف لماذا. ربما لأنـه كان يتكلم بشغف كأنه يروي حكاية خيالية.

عندما تأهبا للانصراف دفع إليها بالورد. ترددت يداها في الإمساك بالباقة، وقالت:

ـ لابد أنك اشتريته لأحد ما.

قـال إنه يشـتريه لنفسـه بيـن وقـت وآخر، خاصـة عندما يستشـعر مقدمات اكتئاب:

ـ أستعد لمواجهة اليأس قبل أن يتمكن مني.

ـ تستقبل اليأس بالورود؟!

ـ بعدة أشياء، الورد أحدها.

ـ وما الأشياء الأخرى؟

تشرَّب وجهه بالأحمر، وهمس:

ـ لم يأت أوان الاعترافات الكاملة بعد!

عندما عادت إلى بيتها، أعدت مزهرية، وضعت فيها الورد، وقالت لنفسها «الآن عرفت لماذا لم أنفر من إلحاحه طوال أكثر من عام. يبدو أنني أحب هذا الولد اليتيم».

وسواءً أحبته من أول نظرة كما يحسب، أو أحبته لاحقًا كما تقول، فقد أعادته طفلًا، وأحس بصخرة تنزاح من فوق صدره.

جعلته الصدمات يعرف الفرق بين العرض والواقع، وعلَّمته الحذر من الخلط بينهما؛ فعاش حذرًا مقيدًا مثل طفل يطبق يديه على لونين مختلفين من الخرز. ظهور فريدة منحه راحة التخلي عن الحذر. وبدأ يرى الحياة جميلة كوعد.

عاد إلى التردد على النهر، لكنه لم يعد ينزل ليجلس على البطانة الحجرية للشاطئ، لأنه صار كبيرًا وسيبدو هذا السلوك مستهجنًا، كما أن التحديق في النيل أصبح مدعاة لكآبته، إذ تناقصت مياهه وتعكرت،

وصارت الجلود الجافة التي تتركها السحالي تحت العشب الجاف أكثر من الفراشات فوقه. أصبح يكتفي بالجلوس على المقاعد الخشبية على الرصيف أو يقف مستندًا إلى السياج الحديدي للكورنيش موليًا ظهره للنهر، يتأمل المارة، مبتسمًا، بينما يصنع لكل منهم حياة على هواه، انطلاقًا من ابتسامة طيّرها الهواء باتجاهه أو عبوس وجه أو جملة حوار بين اثنين.

ولم يكن بوسع فريدة أن تحمله إلى خفة الحياة، إلا بفضل مساندة صديقاتها اللائي جعلن لقاءاتها به ممكنة. وبسبب حكاياتها عنهن لم يعد يستمد السعادة من وجودها وحدها، بل من وجودهن كذلك.

كانت مستلقية، على الكنبة، رأسها على فخذه، يعبث في شعرها، يحاول أن يستظهر أسماءهن على مسمع منها، ثم همس بابتسامة خجلى:

- أصبحت أحببهن معك.

قال وتطلع إلى عينيها. رفعت حاجبًا وأغلقت عينًا، وردت:

- كلامك لا يُطمئن!

لم يُعقِّب، وأخذ يتبصص عليها، ليرى إن كانت فطنت إلى ما أحس به في تلك اللحظة. اجتاحته موجة اشتهاء لهن معًا. اشتهاء غامض لذلك الفيض المتناغم من الأنوثة «هل يمكن لها أن تتفهم هذا الشعور؟!».

حتى الآن لم يـر إلا اثنتين منهن عابرًا، لكنه يعرفهن واحدة واحدة مـن حكايـات فريدة: خرجتُ مع منى، أرسـلت لي هبـة كيكة، تركت البنتين مع جيهان. صديقات طفولة، تزاملن في المدرسة، وفي النادي، ولـم تنقطع علاقتهـن أبدًا، رغم الاختلاف الشـديد في مصائرهن بعد التخـرج. منهـن مـن بقيت بلا عمل وبـلا رجل ولم تغـادر بيت أبيها، منهـن من تزوجت شـابًا مكافحًا، من تزوجت ثريًا مسـنًا، من افتتحت مشـروعها الخاص. منهـن من توظفـت. من ارتـدت الحجاب، ومن ظلت سـافرة. وبينهن من تعيش حياة أخرى سـرية تحترمها الأخريات المخلصات لأزواجهن.

ليـس هناك ما تخفيه إحداهن عن صديقاتها، يتضامنَّ في مسـاعدة المحتاجـة، سـواء كانت تلك الحاجـة تأمين لقاء عاطفي أو مسـاعدة ماديـة، حتـى الملابـس يتبادلنهـا. أحـس سـامي أن فريدة أقـوى منه بصديقاتهـا وأسـعد. كان دفئهـن السـبب الأكبـر الذي سـاعدها على تحمـل حياتهـا مع زوجهـا وتحمـل وفاتـه، وبفضل عونهـن تمكنت مـن قلب الصفحة التـي كانت فيها الزوجة المكنونـة لمهندس طموح وغيور من عائلة فقيرة وشـديدة الانغلاق. لم يكن من السـهل أن تجد عملًا ببكالوريوس التجارة الذي يحمله عشرات الآلاف من العاطلين، ولم تطلب شيئًا من أسرة المرحوم، حتى أنهم بدأوا يتشممون حولها، ليعرفوا هل تنفق مما تركه لها أم أن في سلوكها ما يمكن أن يُسيء إلى سمعتهم.

همس:

ـ أنت محظوظة بصديقاتك.

ـ تعويض القدر عن أمي. ربما؟

اعتدلت، وأخرجت تليفونها، وفتحت له صورة، باهتة الألوان:

ـ انظر، كم كانت جميلة؟

ـ كأنها صورتك الآن.

ـ كان أبي شديد الغيرة عليها، كثيرًا ما كان يتشاجر في الشارع، بسبب مغازلات الآخرين لها.

ـ لا تحلمي بهذا، أنا لست غيورًا.

قال مداعبًا؛ فأخذت تحكي له عن المرأة التي لم تعرفها إلا من الصور، ومن حكايات أبيها الذي عاش مخلصًا لذكراها. كانت في الثالثة عندما ماتت أمها، لكنها تعرف طباعها؛ ذوقها في الطعام، قدرتها على السخرية، الأغنيات التي كانت تحبها، وجمالها «مثل نجمات السينما» كان أبوها يقول بفخر، ومع ذلك هو الذي رفض عرضًا جاءها للتمثيل.

الشيء الوحيد الذي لا تعرفه عن أمها هو صوتها. كثيرًا ما تجلس وحيدة تعتصر ذاكرتها على أمل أن تتذكر كلمة قالتها لها. تعتقد أن أمها ستكتمل في داخلها، لو تمكنت من تذكر صوتها.

قالت:

- لن أقنع أبدًا بالذكرى الخرساء.

رد مواسيًا:

- لكنك فقدت أمًا وكسبت ستًا.

أومأت برضى، فأمسك نفسه حتى لا يُطلِعها على العرض الذي طاف بخياله.

هو، على العكس، يعرف صوت أمه، وليس حريصًا على تذكره. كان صوتها صلبًا كطباعها. الصوت الذي أحبه كان صوت أم شفيع الهادئ. تمنى لو كان ابنها. كانت تحب ضحكه، وكانت تسأله عن والديه فيقول لها كل شيء، وكان يعرف منها الكثير كذلك. كانت تجمع حولها نساء وبنات بوابي العمارات المجاورة، ولا تكف عن ممازحة الطالع والنازل.

كان يغافل أليس لينزل ويلعب مع شفيع. وعندما دخل غرفتهم أحس بالحرية لأنه يستطيع أن يتلمس ويستكشف كل شيء؛ الموقد الصغير، الكنكة السوداء، الشاي والسكر في برطمانات كانت سابقًا للعسل والمربى، أكوام من لعب الأطفال المعطوبة بعضها كانت لعبه ولعب يوسف، حشيات ملوثة ببراز الذباب، وكراس قاعدة بعضها مجرد إطار بلا مقعدة، بعضها أعرج، يمزح معه ويطرحه أرضًا عندما يجلس عليه.

مرضت أم شفيع وجاءت عربة حملت الأسرة إلى الفيوم وبعد أسبوعين عاد أبو شفيع وحيدًا. ماتت قبل أليس التي ظل يشعر بقلة تقديرها له. حتى في مكالماتها المتباعدة، كان بوسعه أن يستمع عبر المسافات إلى رنة التذمر في صوتها لكونها أمًا لطفل أبله، مُصرٌّ على عبثية العيش مع رجل يحارب طواحين الهواء، لهذا أجبر نفسه على تجاهل لمسة الرقة التي تدثرت بها في أسبوع عزاء أبيه. بدا له حنانها مثل شال خفيف من حرير شفاف لا يخفي عناد القوة.

ربما لم يكن إخفاؤها لمرضها إلا ضربًا من هذا العناد، لكنه لمس فيه عدم التقدير كذلك. لم تذكر له شيئًا، ولم تدع يوسف يخبره. ثم تلقى مكالمة منه في صباح يوم 26 أغسطس 2008 أخبره فيها بموتها. أرادت أن تنقذ حياتها مما أسمته جنون صبري يعقوب، هل كانت لتقدم على الرحلة لو كانت تعلم أنها لن تعيش بعده سوى شهرين وثمانية أيام؟!

لم تستمر محادثة الأخوين أكثر من دقيقة، لأن سامي لم يسأل عن تفاصيل. سرح في المشهد الذي رآه قبل ذلك، ولم يعرف ما يقول لأخيه على الجهة الأخرى. أغلق الخط، ومضى إلى الشرفة فاتحًا فمه على آخره يبحث عن ذرة أكسجين وسط الرطوبة الخانقة. أخذ يلهث مثل سمكة خرجت من الماء.

في عزاء أبيه لم يكن في هيئة أليس أي شيء غريب، لكنها كانت ضجرة أكثر من عادتها، ولم يذهب تفكيره إلى مرضها. رغم أنه رأى

في المنام مشـهد موتها، إلا أنه كان قد فقد الاعتداد برؤاه. رأى راهبة فارعة تمد يدها لتغمض عيني أليس في غرفة بيضاء، لم تزل تفاصيلها محفورة في ذاكرته: السـرير الناصع، لوحة مراقبـة الوظائف الحيوية، والأسـلاك الممتدة منهـا إلى صدرها، أنبوبـة المحلول، وإصيص من زهر الجيرانيوم الذي تحبه.

عندما يسـتعيد اللحظة، يستغرب ردة فعله في الحلم. كل ما جذب انتباهـه كان برودة الغرفة ونصاعتها، تمنـى للحظة أن يتمدد إلى جوار أليس ويحتضن جسدها المجلل بالسكينة. رآها بعد ذلك في صندوق خشبي لامع، داخل حفرة وسط عشب متألق الخضرة، وعدد قليل من المعزين يلقـون زهورًا فوق الصندوق. لم يحس فيما رآه رهبة الدفن، بل شيئًا بجمال غرس شتلة جديدة في حديقة.

جذبته فريدة من ياقة قميصه لتنبهه، وهمست:

- معك حق، صديقاتي يتصرفن معي كأمهات.

تعتقد صديقاتها أنها لم تكبر، ولم يزلن يعتبرنها البنت اليتيمة. على الرغم من وجود أب وأخوين، يعتبرن حمايتها مسـئوليتهن المشتركة، حتى عندما كانت تخرج معهن خلسـة في سـنوات زواجها، كنَّ يؤلفن لها الكذبة التي سـتقولها لزوجها الغيور، يتناوبن على تحفيظها القصة البديلة، وهن يعرفن أنها لن تقول شيئًا غير الحقيقة.

انتبهت إلى أنها تكشف أكثر من اللازم، فعقَّبت:

ـ هبلْ طبعًا، أنا لست بلهاء إلى هذا الحد.

وضمته إليها، بينما أخذ يعابثها بحذره من «محفل الأنوثة السري».

ـ أنت أصلًا، أصلًا، مختلف، يمكن أن تخرج معنا.

ـ باب العضوية يبدو مغلقًا.

ـ نفتحه من أجلك. ستكون الرجل الوحيد بيننا.

وهو يشعر بالفعل أن حضوره يتعمق في عالمهن الدافئ، ولولا مساعدة ثريا، ما كان بوسع فريدة أن تخطط لاستقباله في بيتها اليوم.

# 3

**لم يغرر به القطان وحدهما.**

**للحقيقة، البونسيانا هي التي أحكمت الفخ أولًا. أغصانها المبتهجة استدرجت عينيه، وعندما نظر إلى السجادة الحمراء تحتها، رأى القطين يتزاوجان.**

**لم تنصب البونسيانا فخها فجأة، بل كانت تنسج خيوطه بدأب على مدى سنوات طويلة قبل أن يولد سامي، وربما قبل أن يولد صبري يعقوب ذاته.**

تتحمل البونسيانا في طفولتها آلام التقليم، تستسلم للمقص والمنجل، ورغم الألم تواصل النمو، ويشتد جذعها حتى تصبح أغصانها أعلى من قامة الرجل، لكن الإنسان الذي يرى نفسه سيدًا لكل شيء، لديه السُلَّم الذي صنعه من أشجار أخرى، كما يمتلك البلطة من الفولاذ، وهكذا تكون البونسيانا مجبرة على تحمل آلام التقليم لسنوات أُخرى، حتى تصبح أعلى من قامة رجل فوق سلم، عند ذلك تبدأ في نسج خطتها بإحكام ودون ضجة. تمد فروعها أفقيًا في كل اتجاه؛ فروع معوجة، حتى يستحيل الانتفاع بخشبها في صنع

سلم. كل فرع يمد أغصانه المعوجة في كل اتجاه كذلك، بينما تنشط الشجرة بكل قوتها في الدفع بزهور حمراء تزاحم الأوراق الخضراء، مشرعة للطيران كأجنحة الفراشات.

وهكذا سيطرت عدة شجرات على فناء واسع، إلى درجة أنها تمكنت من حجب السماء العالية بسماء أخرى خفيضة متوهجة، ووقفت مغتبطة، تهز أوراقها السرخسية مع الريح، وتساقط زهورها الهشة فتصنع سجادة حمراء، يمضي فوقها رجال بين وقت وآخر، ويختفون مسرعين داخل أحد المباني الثلاث. يبدو أنهم لا ينتبهون إلى جمال المنظر الذي لفت انتباه سامي، لم ينتبهوا حتى إلى وجود قطين يفعلان علنًا ما يفعله الناس خلف الأبواب.

**مع ذلك لا يمكن القول إن تزاوج قطين فوق سجادة من الزهور تحت تلك السماء الخفيضة يمكنه أن يكون وحده سبب بهجة سامي هذا الصباح. البهجة بداخله، استيقظ بها بعد نزهة الأمس مع حبيبته، وكل ما فعلته البونسيانا وزوج القطط هو إنعاش البهجة التي في قلبه؛ فأخرج تليفونه وصوب الكاميرا، يسجل هذه المراودة التي سيحملها إلى فريدة.**

مساء أمس كانت فريدة منطلقة أكثر من أي وقت مضى. أحس أنها لم تعد تكترث بما سيقوله الناس، وهذا يعني أنها صارت تحبه جدًا جدًا. بادرت بوضع ذراعها في ذراعه وسط الزحام، غير مكترثة بمئات التليفونات التي تصور الاحتفال بفوز المنتخب.

ـ كل هـؤلاء سـيرفعون صورهـم وفيديوهاتهـم علـى صفحـات التواصل، وسنصبح مشهورين.

قـال، ثـم أنَّب نفسـه على إثارتـه خوفها، لكنها لـم تلتفت لكلامه الـذي ذهب وسـط الأغنيـات والصفيـر والهتاف وأصـوات الأبواق، وجذبت زنده ليستريح على صدرها.

بعـد أن أوصلهـا بالقـرب مـن بيتها عاد بالتاكسـي نفسـه. من فرط سعادته أحس بالحاجة إلى تهدئة اصطخاب قلبه كي ينام بسهولة، فكّر في تناول حبة منوم، لكنه اسـتبعد الفكرة حتى يسـتيقظ نشـيطًا ويكون فـي موعـده بالقرب مـن بيت فريدة. اتجـه إلى الخيار الآمن «سـأدفئ كـوب حليب» وقـف أمـام الموقد، وأغمـض عينيه يسـتحضر لحظة يحبهـا؛ اللحظـة التي تتمدد فيهـا فريدة على جنبها، ويسـتلقي خلفها، ويأخذ في ترصيع ظهرها بقبلاته، متأنيًا.

فتـح عينيـه قبـل أن يفـور الحليـب بلحظـة، صبـه فـي الكـوب، حملـه ومضى إلى فراشـه باضطـراب البهجة. وضعه يبـرد قليلًا على الكومودينو، وتمدد في سـريره. أعجبتـه البرودة الخفيفة التي قدَّر أنها ستأخذه إلى النوم سريعًا، وبينما يختبر سخونة الكوب بالشفَّة الصغيرة الأولى، فكَّر أنه تهور بمجاراتها في اقتراح اللقاء بشقتها «ألم يكن من الأوفق أن نلتقي هنا؟».

كان المحتفلـون قـد التحقوا بالمواكـب وتركوا وراءهـم المقهى خاليًا يعاني فوضى انفعالهم، وبينما أخذ العمال ينظفون الأرضية من

الأكياس والزجاجات وعلب المشروبات الفارغة والمناديل الورقية وقشر اللب والفول السوداني، ويجمعون الكراسي الفوضوية التي تمددت على الرصيف، جلس سامي وفريدة إلى طاولة كانت الفوضى حولها محتملة، ورغم الأتربة التي تثيرها مكانس العمال، أحسا أن المكان الخالي صار لهما.

قالت فريدة:

ـ هل تحب أن ترى شقتي؟

كان التسامح الذي يسري في الهواء سببًا في تشجيعه، ولأنه يحب فريدة كما لم يحب أحدًا آخر، فهو يحب أن يعرف كل شيء عنها، يريد أن يجمع كل عالمها في كرة واحدة، ويضع تلك الكرة في حضنه ويغفو.

قال:

ـ نعم.

قالها ببساطة. في الحقيقة لم يكن بوسعه أن يقول لا. ليس من المعقول أن يبدو أقل شجاعة أو أقل ولعًا منها.

وعزز اقتراحها بفكرة:

ـ نحتفل بعيد ميلادي عندك.

خرجت الكلمات الأربع متدافعة، مثل صوت تحطم مزهرية من بللور، وما لبث أن أحس بانفراط القلب الذي يصاحب انتشار شظايا

الكريستال على البلاط. تمنى أن ترد «غدًا غير ممكن، لا أستطيع الترتيب بهذه السرعة» لكنها لم تقل ذلك. لم تتردد لحظة. هاتفت ثريا، التي أصرت على أنها هي التي ستُحضر التورتة عندما تأتي لأخذ هند وإشراق. وقبل أن تنهي المكالمة حمَّلتها تهنئتها له.

أخذت اللحظة تستعيد نفسها في رأسه المسنود على مقدمة السرير، دون أن ينجح الحليب الدافئ في تلطيف قلقه. بين شفطة وأخرى يحس أن روحه تنسحب كما في مصعد يهوي. ارتعشت يده فبلل الحليب رقبته وسال على صدره، ورأى ركام الثلج يتساقط من سماء الغرفة ويصنع تلًا موبرًا بالندف. هل فاجأه خوفه الجليدي، لأنه انتبه إلى خطئه بمجاراة فريدة في تهورها، أم أن الحزن ينبع من قلبه، بلا سبب سوى أنه يستلقي وحيدًا في شقته المسكونة بالأشباح؟

لم ير جبال الثلوج إلا مرة واحدة، عندما كان في الخامسة. في زيارته الوحيدة لألمانيا، التي لم يتبق منها سوى ذلك المشهد. كان مستثارًا ومستمتعًا بحركة المتزلجين الذين ينطلقون في لحظة إلى البعيد فيبدون أقزامًا ملونة فوق التلال البيضاء اللامعة بأشعة الشمس. فجأة اندفع أحد تلك الأقزام إلى منحدر، ساحبًا وراءه كتلًا كبيرة من حافة الصخرة سرعان ما تبعتها انهيارات أخرى، أخذ يشير مبتسمًا إلى مكان المتزلج الذي حلَّق كعصفور ثم انطمر تحت ركام الثلج. لاحظ أن جميع من حوله توقفوا بين صامت وباك، تصرخ وجوههم بالخوف. من وقتها أصبحت هوة البياض الحد الأقصى من الخوف والحزن في قلبه.

الوحدة في الليل تجعل القلب مصيدة للكوابيس، بينما يمسي السرير موطنًا للأحلام عند النوم بجوار شخص نحبه. لو عادت فريدة معه! «كان استلقاؤها بجواري كافيًا لكي يمنحني حلمًا سعيدًا» لكن ذلك الاستلقاء المطمئن بجوارها ليلة كاملة لم يزل حلمًا لا يعرف متى يتحقق. آه! لو لم يمت يوسف!

«لا حبيبة ولا أخ؟» فكَّر أن وجود يوسف كان سيمنع هذه الانهيارات، ما كان لها أن تحاصره هكذا، وإن هاجمته كان سيلتمس عنده الأمان. عندما كانا صغيرين كان ينتقل ليستلقي بجواره، يصف له ما رآه في حلمه، وكان أخوه يعرف كيف يبدد مخاوفه على الفور. لو كان هنا وحكى له عن قلقه من لقاء الصباح، ربما، كانت تربيته الألمانية ستدفعه للسخرية منه، ليس ربما، بل مؤكد، أن بياض عينيه البنيتين كان سيتسع ويهتف «لا أعرف ما المقلق في أن تقضي يومًا مع حبيبتك في بيتها؟!».

لم يتحدث مع يوسف عن ذكرى قتيل الثلوج «لم نتكلم عن الكثير من الأشياء».

سيطر عليه شوق جارف لأخيه. أرخى ستارتي عينيه؛ فرأى أخاه ساكنًا وأليفًا. هجمت عليه ذكرى اللحظة التي تسلم فيها متعلقاته في المستشفى الميداني في الخامسة من صباح الثالث من فبراير عام 2011 «قتلوا أبي، وأنا ساهمت في قتل يوسف» قال، وزفر نارًا. هل كانت أحوال مصر ستصبح أسوأ لو أطاع أخاه وامتنع عن النزول

إلى الميدان في ذلك الأربعاء؟ لو أوهمه بالاستجابة لتوسلاته على التليفون ما اضطره للعودة من الأساس. ربما كان سيفعل ذلك لو كان المتصل شخصًا آخر، لكنه لم يستجب لتوسلات يوسف. وكان يكفي أن يطمئنه كذبًا ويوحي له بالاستجابة «مصر تتغير يا أخي» ظل يرددها بإصرار، وأحس أنه بذلك أسقط عن جسمه جِلد الشخص الهش الذي يعرفه يوسف. أراد أن يقول «إنني أتغير يا أخي» ولم يعرف أن إصراره هذا سيجعل يوسف يحزم حقيبته ويعود.

عندما فوجئ بيوسف واقفًا على باب الشقة في تمام التاسعة من صباح الأول من فبراير، بعد ثلاثة أيام من المكالمة، فتح ذراعيه واحتضنه، ثم أفسح له، وجرَّ حقيبته نيابة عنه. أغلق خلفهما الباب، وترك الحقيبة في وسط الصالة.

وقفا متواجهين يطالع أحدهما الآخر، ثم شرع يوسف بتأمل الشقة مبديًا إعجابه بالأثاث العصري الأنيق والدهانات التي حلت محل ورق الحائط المغبر القديم.

- التغيير كان ضروريًا.

قال سامي، وقاده ليطلعه على بقية التغييرات. كان أثاث غرفتهما على حاله: سريراهما المفردين، وبجانب كل منهما الكومودينو الخاص به، وبامتداد الجدار المقابل يقف الدولاب ذو الست ضلفات الذي كان مقسومًا بينهما، لكن لون الجدار كان جديدًا ناصع البياض.

خيّره، بين هذه الغرفة وغرفة والديهما التي استبدل أثاثها وصارت غرفته. اختار يوسف غرفة طفولته، لكنه أبدى إعجابه بالتغييرات.

ـ لها بالضبط سنتان.

عقّب سامي المتوهج بالفرحة، وألقى يوسف نظرة إجمالية ثانية على الغرفة، قبل أن يعود إلى الصالة لجلب حقيبته.

بعد أن فقدا أبويهما ظل يوسف يتواصل معه في مكالمات مقتضبة بين وقت وآخر. كانت مكالماتهما تقتصر على التحية والأسئلة الروتينية، يؤكد كل منهما للآخر أنه بخير، كما يفعل اثنان لا يريدان توطيد العلاقة بينهما. كلاهما يعرف أن هذه ليست الأجوبة الحقيقية، وأن في حياة كل منهما تفاصيل لا يعرفها الآخر. وكانت تجديدات الشقة جزءًا من تلك التفاصيل.

أمسك يوسف بمقبض حقيبته، ثم تركها وخطا نحو باب الشرفة. جمع الستارة. تقدم وفتح ضلفتي الزجاج، ثم فتح الشيش عن آخره، ووقف يتأمل الساحة الصغيرة. قام سامي، ووقف خلفه يحاول تخمين الشيء الذي استحوذ على تركيزه.

ـ هل تبحث عن النملة على جدار العمارة المقابلة؟

سأله؛ فأخرجه من استغراقه في تأمل عصافير تتقافز على أغصان شجرة الحور الضخمة التي تظلل ساحة عائشة التيمورية. ابتسم واستدار يتأمل سامي. لا يعرف إن كان عليه أن يغتبط بمظهر الجدية الذي يبدو عليه أم يأسف على ابتسامته المسروقة. من إصراره

وحماسته على التليفون «مصر تتغير يا أخي» تصور أنه سيراه مبتسمًا كما عرفه دائمًا، وأن وسم الجدية الذي وسم وجهه في أيام الحداد على أبيه قد زال.

أخرجه سامي من تأملاته. سأله:

ـ هل تحب أن نجلس في الشرفة؟

لكن يوسف عرف كيف يزوغ من وضعية الضيف، قال:

ـ نفرغ الحقيبة أولًا.

استبقه مرتدًا إلى الصالة. جذب ذراع الحقيبة، ومضى إلى غرفته. أراح الحقيبة في وسط الغرفة، وشرع في فتحها. أخرج كيسًا بلاستيكيًا، وأخذ يُقدِّم محتوياته لسامي: تي شيرت، قالب شيكولاتة كبير، وزجاجة عطر.

تفحص سامي زجاجة العطر:

ـ هذه أجمل هدية! سأقدمها لك في عيد ميلادك، ألن تبقى معي حتى عيد ميلادك؟

ـ سأبقى، على ألا يُزعجك هذا!

أجاب ضاحكًا، وشرع في استخراج ملابسه وتعليقها في الدولاب. بادره سامي:

ـ لم أفطر بعد!

ـ ولا أنا.

ـ حالما تنتهي، سأعد إفطارًا.

مضى إلى المطبخ، وأخذ يتذكر خيارات يوسف في الأكل عندما كانا صغيرين: بيض برشت، توست مع الزبد والعسل. هكذا يكون قد أمَّن الموقف بالعادي، وسيعد طبقًا من الفول الإسكندراني المشطشط. في خزانة المطبخ علبة أخيرة.

جلسا أمام الإفطار يتأمل أحدهما الآخر. بدا لسامي أن الصور القليلة التي يتبادلانها بين الحين والحين لم تكن كافية للتعبير عما صار إليه كل منهما. كان يوسف قد ارتدى شورتًا وفانلة بنصف كُمّ.

بادره سامي:

ـ يمكن أن تصاب ببرد.

ـ أي برد؟! هذا صيف بالنسبة لنا.

أحس سامي بكلمة «لنا» وكأنها يد تدفعه بعيدًا، تعيد ترسيم الحدود التي تفصل بينهما، وأخذ يتأمل جسد شقيقه؛ عضلاته المفتولة، كتفه العريضة، صدره البارز، وفخذه الملفوفة التي تستدق بانسياب فني أخَّاذ.

في طفولتهما كان يوسف قويًا، لكن جسده لم يكن بهذا الكمال، وكان سامي ضعيف البنية، توبخه أمه دائمًا على سيره محنيًّا، ترفع رأسه بيدها، وتشد كتفيه للوراء. يمشي متخشبًا في وضع الاعتزاز بالنفس الذي هيأته عليه، لكن حذره في الحركة، يجعله كالإنسان الآلي، ويبدأ

يوسف بالضحك. بعد خطوات كان يحس بالضجر ويعود إلى المشية التي تريحه؛ فتزفر أمه مستنكرة بيأس غاضب.

لم يعد سامي ذلك الطفل الهزيل بنظارته التي كان يحسها قيدًا على كاحليه أكثر منها حملًا على وجهه. تحملها لبضع سنوات في طفولته، وكان ذلك كافيًا لتصحيح بصره فاستغنى عنها. عرف جسده الاستواء، وصار فارع الطول مثل يوسف، لكن آثار الانكماش الطفولي لم تزل بادية في حدبة بسيطة تزداد في المواقف المحرجة وينتبه إليها في لحظات التحدي فيشد قامته وتختفي هي والابتسامة.

عاد يتأمل جسد شقيقه بإعجاب، وإحساس بالأمان. النور القليل أحال الصالة إلى بلورة من السكينة لم يبددها زيق رفيع من الشمس متسلل من باب الشرفة. نسمات باردة تجتاح الصالة وتدغدغ الجلد، بينما كانت أصوات الميدان الصباحية تصل مبهمة مثل ضجة فصل بلا مُعلِّم.

لم يجلسا متواجهين تمامًا، كان يوسف هو الذي اختار الجلوس بوضع جانبي قليلًا، ربما أراد أن يوفر ساترًا لأفكاره ومشاعره، كي يستوعب أخاه مجددًا، بينما أخذ سامي يتأمل المقطع الجانبي من جسد أخيه، كأنه يتأمل شريحة طولية من تمثال: جانب رفيع من الرأس بالشعر الطويل الذي صار باذنجانيًا، بعد أن كان أشقرَ في الطفولة، أذنه المقلوبة قليلًا، عنقه الطويل، تفاحة آدم البارزة التي تبدو من الوضع الجانبي وكأنها أنف آخر، كتف مستديرة تنبثق منها ذراع قوية، يرفعها

في فمه بين الحين والحين، جذع مشدود إلى الفخذ بزاوية قائمة. صورة في التكوين مثل تماثيل الفراعنة. فكّر أنه لم يكن ليعرفه لو رآه في الشارع من هذه الزاوية. لم يره في لقطة جانبية في صورة أبدًا.

كان في سكون يوسف شيء حنون لم يكن يبدو عليه من قبل. وفي نظرته حزن هادئ. تغييرات ربطها سامي برحيل الأم وبقائه وحيدًا. للوهلة أحس أنه ينبغي أن يسأله عن ملابسات موت أليس. فلا يعقل أن تُطوى الصفحة هكذا، لكنه لم يجد في نفسه الرغبة لذلك. كان ما يريحه أكثر ألا يأتيا على ذكر الوالدين، لأن ذلك يمكن أن يرد كلًا منهما إلى موقعه الأصلي. اكتفى بكونهما معًا تُغلِّفهما السكينة. أخوان فحسب، وليس لأحدهما إلا الآخر.

- أشعر بالأسف يا أخي لأنني جعلتك تترك عملك وتأتي.

نطق سامي جملته، بقدر كبير من التحفظ، الذي لا يكون إلا بين غرباء، لكنه ضغط على كلمة «أخي» كأنه يسحق بضروسه حبة عنب ناضجة، كي يتذوق عصيرها الحلو دفعة واحدة.

- أترك عملي بضعة أيام أم أفقد أخي؟

رد العائد ببساطة شديدة، فأغرق أخاه في العصير الحلو. لم يتصور سامي من قبل أن كلمة «أخي» موجودة وقريبة على طرف اللسان هكذا، والأهم أنها تعني لكليهما الشيء ذاته. غمر الدفء قلبه، وتحرك شعره بقشعريرة لذيذة، وقرر عدم النزول إلى الميدان كي يبقى مع أخيه.

لم يمر يوم دون أن يتذكر يوسف، لكنه يتعايش الآن مع غيابه بأسى خفيف ساكن تحت فرحة حبه لفريدة، وكان غريبًا أن تعتصره الأحزان في الساعات القليلة بين عودته من لقائها، واستعداده لزيارتها، ولم يسعده كوب الحليب على الخلود للنوم.

لم يرضع سامي صدر أليس، وكان من الممكن أن يعيش ويموت دون أن يعرف هذه المعلومة؛ فلا أحد بوسعه أن يعرف عاداته عندما كان رضيعًا إلا من حكايات أمه. أطلعته على هذه التفصيلة دون أن تقصد. قالت ذات مرة متذمرة من عناده «لقد غادرت بطني بهذا الرأس الحجر» بذلت كل محاولاتها لتجعله يمسك حلمتها، لكنه كان يلفظها، ويتف قطرات اللبن؛ فيتدبق وجهه وثديها. جرَّبت البرونة فتلقفها، وارتبط بها حتى وصل إلى سن الحضانة، وكان يسعده أن يواصل شرب اللبن من تلك الحلمة الجلاتينية طوال حياته، لولا أن الناس يضعون معايير للسلوك يخنقون بها رغباتهم. وعلى كل حال فإن مزمزة الحليب، حتى ولو من كوب، لم تزل قادرة على استحضار الأم. ليس استحضار أليس أو البرونة، بل حنان أم بلا ملامح، لعلها الطبيعة بكل ما فيها من أشجار وفراشات وطيور وأبقار وذئاب.

تمزز الحليب الدافئ لم يساعده على صد الحزن الجليدي الذي أخذ يرتفع حتى كاد أن يغمره في سريره. زحف إلى الجهة اليمنى التي تفضلها فريدة، استلقى مكانها بالضبط، وأخذ يستعيد الدفء الذي تركته وراءها، وهكذا تمكن من استحضار أجمل يوم عاشه مع يوسف على الإطلاق.

بسبب تعب السفر، لم يتحمس يوسف لاقتراح العشاء بالخارج يوم عودته، وابتهج سامي لكسل أخيه. كان يريد أن يعرف عنه كل ما لم يعرفه من قبل، وأن يفتح له قلبه، دون أن تدخل بين جُملهما شظايا كلام تتطاير من فوق الموائد الأخرى في مطعم صاخب، أو يقطع استرسالهما نادل بسؤاله المهني الخالي من أية عاطفة حقيقية «كله تمام؟» كل النُدُل يسألون هذا السؤال وهم يتوقعون جوابًا واحدًا «تمام شكرًا» ومن هذه الإجابة يتسللون بهراء من المجاملات وإبداء الاستعداد لتلبية أي شيء. تمثيل! مجرد عرض أتقنوه ويؤدونه أمام كل الموائد. وإذا أتقن الزبون دوره سينعم بوجبته دون منغصات، لكنه سيرى كيف يتحول العرض إلى واقع غليظ، إذا تفوه برد مختلف من قبيل «ملعقة إضافية لو أمكن» أو «طبق طحينة آخر» عندها سيشد النادل قامته، وتختفي ابتسامته المتملقة، وينقل الطلب إلى زميله الأصغر بصلف هدفه إبراز حجم سلطته أمام الزبون المتطلب الذي سيجد نفسه ضحية لتصارع القوى الصامت بين النادلين.

وجد في الثلاجة ما يكفي لإعداد عشاء جيد، لكنه قرر شراء أشياء طازجة، ولم يكن مستعدًا للابتعاد عن يوسف لحظة واحدة، وهكذا دعاه لمرافقته في جولة الشراء، ووجدها فرصة لتعريفه بكل ما طرأ في غيابه.

اتجه إلى السلم بدلًا من المصعد، ليبدأ جولته الإرشادية من أمام باب شقتهما، يخبره عمن تبقى من السكان، من مات وأغلقت شقته، من عاد أولاده ليسكنوا مكانه، من غادر إلى التجمع الخامس ومدينة

6 أكتوبر. كان قط ضخم متسخ ينام مسترخيًا على بسطة السلم في الطابق الثاني، لمَّ القط قوائمه بكسل، ولم يشعر سامي بخفقان قلبه المعتاد عندما يرى القطط. كان يعتقد أنها كلاب توقف نموها بسبب لؤمها. وعندما كبر لم تتغير رؤيته، بل على العكس تعززت بما عرفه عن الحيوان الذي تأخر في الاستئناس، وحافظ على غروره وغموضه واستعداده الدائم للغدر.

**الغريب أنه لا يشعر الآن بهذا النفور من قطين يتزاوجان دون أن يتخليا عن الشر، حتى في لحظة حميمة كهذه. لم تخرجهما من استغراقهما الخطوات الآدمية الثقيلة ولا صيحة غراب شرخت الصمت كطعنة سكين، لكنهما كفا عن الهراش وأخذا يتربصان بعصفور هبط من الشجرة وبدأ يحجل على سجادة الزهور.**

**طارت ابتسامة سامي تحت إحساسه بالخوف على العصفور، وسيطر عليه خاطر غريب «هل من الممكن أن يكون يوسف قد رأى هذا العصفور؟!»** يعرف أن عصافير الدوري تُعمِّر أكثر من العشرين عامًا، وإذا لم تكن العصافير التي تأملها يوسف قد سقطت في فخ ستكون حية بلا شك الآن، والمسافة بين جاردن سيتي وإمبابة قصيرة إلى الحد الذي تصلح معه لأن تكون نزهة يومية حتى لعصفور كسول. دقق النظر كأنه يحاول التعرف عليه حقًا، ثم لوَّح ينبهه. لا القطان ارتدعا ولا العصفور رأى تحذيره. فرد جناحيه متناومًا، وقبل أن يُحكم القطان حصارهما عاد العصفور يحجل. بدت اللعبة مكشوفة للطرفين. القطان يتسحبان والعصفور يراوغ بقفزات صغيرة كأنه

مستمتع بالاقتراب من الخطر، ثم طار في اللحظة المناسبة وتوقف فوق غصن متدل، كأنه يقول «اصعدا إن تقدرا».

**تطلع القطان إلى فوق، وارتد بصرهما المُحبط. عاد القط يتشمم القطة التي وقفت تتلقى تحرشاته بقلة مبالاة أثارت فضول سامي فصوَّب الكاميرا إليهما مجددًا. انتبهت القطة إلى مراقبة الكاميرا فاستدارت وحدَّقت تجاهه بصلافة أربكته.**

بقدر تأكده من أنه لم يخف من قط السلم يوم الثلاثاء ذاك، بقدر ما يتذكر تأفف يوسف الذي جعله يتمنى ألا يصادفا قطًا آخر. عبرا أمام شقق الطابقين الثاني والأول ولم يصادفا قططًا، وعندما وصل مع أخيه إلى المدخل رفع صوته كي يُسمع البواب:

- يوسف يا حاج!

- شُفته، وسلِّمت عليه يا باشمهندس.

قال أبو شفيع، واعتدل لحظة مرورهما.

رتَّب سامي في رأسه القائمة، حتى لا ينسى شيئًا: لحم، طماطم، خيار، فلفل، خس، وجرجير.

بمجرد أن غادرا باب العمارة، استأنف مهمته في الإرشاد السياحي؛ أخذ يلفت انتباه يوسف إلى التغييرات التي فاتته: الفيلات التي هُدمت وصعدت مكانها أبراج، الجراجات تحت الأرضية التي أضيفت إلى الطوابق الأولى وصارت مطاعم، متجر الورد الضخم الذي ظل

يتقلص ويتنازل عن أجزاء من مساحته لنشاطات أخرى، حتى صار كشكًا زجاجيًا على الرصيف أمام المتجر القديم، أطلعه كذلك على أفضل الشوارع البديلة للسير دون المرور بالحواجز وأكمنة الحراسة.

في زيارة 2008 وكذلك في عودته الأخيرة رأى يوسف الأكمنة والحواجز التي تعيق حركة السيارات، لكنها لم تكن بالكثرة التي هي عليها اليوم. المتاريس التي تتسبب في حفر ثم تزال لتوضع في مكان آخر والجدران الحجرية العالية التي ارتفعت في كل مكان.

**«أصبحت جاردن سيتي تشبه إمبابة مثلما تشبهني فريدة» فكَّر سامي وأخذت ابتسامته تتسع. التفت القطان نحوه بغيظ، دون أن يعيرهما انتباهًا، وليس بوسع هذا الحيوان الأناني أن ينتبه إلى الأمنية المستحيلة التي تملأ قلب سامي هذه اللحظة، حتى أنه أغلق عينيه، مفكرًا «كم تصلح جاردن سيتي الآن للعب الاستغماية!» عاد يوسف في خياله طفلًا مختبئًا خلف جدار حجري، وهو يبحث عنه دون جدوى.**

في طفولتهما كان لدى سامي امتياز الاختباء داخل جلباب أم شفيع، وكان يوسف يعرف مكانه، لكنه يستحيي أن يقترب ليستخرجه من تحت مقعدة السيدة البدينة. فكَّر «الأحبة لا يموتون! تبقى على الأقل الذكريات ويستطيع القلب المشتاق أن يصنع منها حياة جديدة».

كانت أصوات الميدان تبدو قريبة جدًا في صباح ذلك الأربعاء، كانت جاردن سيتي هادئة لا تكترث بما يحدث خارجها. تناوب الشقيقان دفع الترولي في السوبر ماركت والتقاط ما يريدان من فوق

الرفوف ومن داخل الثلاجات. وفي طريق عودتهما، توقف سامي أمام كشك الورد، وطلب باقة صغيرة من الزنبق.

لم يكن قد عرف فريدة في ذلك الوقت، وإلا كان سيجمعها مع يوسف، وإن لم تستطع أن تأتي كان سيحكي له كل شيء عنها، وكان سيبهره بإعداد محشي ورق العنب الذي تعلم طريقته منها، ويجعل الشقة تَعبقُ برائحة النُضج الأليفة التي تشيع الدفء، لكنه لم يُقصِّر مع أخيه، وبذل الحد الأقصى الذي تعلمه كعازب: أعد صينية بطاطس بالمشمش المجفف. كان فخورًا بنفسه إذ يستخدم لوح التقطيع بمهارة، ويرص حلقات البصل والطماطم حتى صارت فراشًا جيدًا لدوائر البطاطس وقطع اللحم والمشمش، ثم أنهى بغطاء من البصل والطماطم، وأضاف في النهاية مسحوق ثمرة جوزة طيب، مع قليل من الملح، ثم قرن فلفل طازج حار فرمه جيدًا، وذرَّاه في الثغرات بين المكونات الأخرى. أراد أن يقول لأخيه مرة أخرى «انظر، لقد تغيرت».

كانت الشمس ساطعة يراها من زجاج نافذة المطبخ، هبَّات الرياح التي لفحتهما في الشارع استمرت. كان ذلك واضحًا من خلال تموجات أصوات الهتاف والأغنيات الوطنية التي تتناوب على ضرب الزجاج في مد وجزر متتابعين.

أحس نفسه وسط دفء ذلك الجمع الذي أحبه «ما أجمل أن تشارك الآخرين حلمًا واحدًا» كان يذهب إلى الميدان كل يوم باضطراب لذيذ، وكأنه ذاهب إلى لقاء حبيبته، لكنه لم يشعر بأدنى إحساس

بالذنب لبقائه في البيت يوم أول فبراير احتفاءً بيوسف، خاصة أن قوة الأصوات جعلته متأكدًا من أن أعداد المحتشدين في الميدان أضخم مما كانت عليه في اليوم السابق، وبوسعه من هذه المسافة أن يشم رائحة الأمل بقوة أكبر بسبب تناقص الخُطب وتزايد الأغنيات في بث إذاعة الميدان، وكانت تلك الرائحة بالذات هي التي جعلته يحاول إقناع يوسف بالعودة النهائية لمصر.

بعد التاسعة مساء، أصبحت أصوات الميدان أقل صخبًا، وكان يوسف هو الذي يتكلم، عن حياته في شتوتجارت؛ عن الظلام والبرد في الشتاء حتى ليصبح الهواء حادًا جارحًا مثل نصل زجاج مكسور. تكلم عن حبيبته التي تركته دون مقدمات أو مبرر واضح. كان يتحكم في نبره، بينما كان بوسع سامي أن يلمس غبار الحزن الرقيق الذي يتناثر من صوته على الأرضية البورسلين، ناعمًا هشًا مثل الدقيق اللامع الذي يتساقط من جناح الفراشة عندما يفركه بين أصابعه.

المرة الأخيرة التي طالع فيها ساعته أمس كانت قد تجاوزت الثانية صباحًا ولم ينم بعدها مباشرة، لأن خيوط الذكريات كانت لم تزل تكر ويجر أحدها الآخر، إلى أن بدأ يشعر بالخدر. مد يده وتحسس كوب الحليب على الكومودينو. دون أن يفتح عينيه حمله وتمزز آخر قطرة، وأعاد الكوب إلى مكانه، مسَّ سقف حلقه بلسانه، يتحسس ملمس بلورات الحليب العالقة، وبدأ بالانزلاق إلى نوم مزعزع.

رغم ذلك استيقظ اليوم مبكرًا. جلس على فراشه مجهدًا، ثم استنشق عميقًا، بينما يسترد وعيه متذكرًا موعده مع فريدة. غمرته موجة عارمة من الفرح طوت تحتها طحالب ذكرياته الحزينة.

عندما غادر الفراش وشرع في طقوسه الصباحية، كان يفكر في الورد وفي كثير من الحكايات التي سيحكيها لفريدة.

رتب الكثير من الأشياء التي سيفعلها من لحظة مغادرة شقته إلى اللحظة التي سيعانقها فيها، ولم يكن من بينها تصوير قطين يتزاوجان، لكن السعيد في الحب بوسعه أن يحب حتى أعداءه.

# 4

طفل يعيش الواقعة الواحدة أكثر من مرة، من الطبيعي ألا تكون الكاميرا من ألعابه المفضلة، لكن تقديره للصورة صار أكبر بعد موت والده. تمنى لو كانت لديه صور أكثر لحسابي يعقوب؛ فالصور تُلتقط في المناسبات السعيدة فحسب، بينما تفرض الأحداث الحزينة والسعيدة نفسها على ذاكرته دونما اختيار منه.

اشترى كاميرا محترفين، وقبل أن يتقن استخدامها، فقدها كما فقد التليفونات المحمولة دقة. لم يتخلف عن اقتناء التليفونات حذقة التصويب، لكنه لم يستخدمها بكثافة إلا بعد أن أحب فريدة. أصبح يصوبها باتجاه أي شيء يتوقع أن صورته ستُفرح حبيبته، ثم صار ينقل إليها مقاطع فيديو لكي يجعلها تعيش أجواء أي مكان يذهب إليه، كأنها معه.

**وإذ يرفع يده الآن ليصور القطين؛ فإنه يفعل ما فعله دومًا خلال عامين وثلاثة أشهر، وها هو يكاد يسمع طقطقة قلبه إذ يتفتح مثل وردة، بينما يسجل لها اللحظة التي تسبق التشابك التام. عاد القط إلى اعتلاء القطة، يتحرك بحثًا عن جسدها، وبدأت هي كذلك تتحرك لتلاقيه، لكنهما أخفقا مجددًا في إلغاء مسافة الفراغ بينهما؛ حيث ازدادت**

**ضآلة الأنثى عندما رقدت قياسًا إلى حجم الذكر المرتفع «ألهذا تكرر فريدة سعادتها بتناسقنا؟»**.

لا يقتصر انسجامهما على طولهما الفارع. فريدة تحب ابتسامته، ولا تستنكر ذكرياته الحلوة التي تطوف برأسه وتجعل ابتسامته تتوسع في لحظات غير مناسبة أحيانًا، لكنها لا تنظر إليه نظرة تأنيب، لا تنكمش خجلًا من الآخرين أو تستعطفهم بنظرات تعتذر فيها عن تحديقته السعيدة التي أثارت دهشتهم. تعتز به وتشعره بالارتياح. تفهمه ويفهمها. يتوقع كل منهما رد فعل الآخر في أي موقف، يعرف كلاهما ذوق الآخر دون الحاجة إلى سؤاله.

وهو يزداد افتتانًا بها كلما حكت له عن نفسها. لم تخلط مثله في يوم من الأيام بين الحياة والعرض، حياتها ليست سهلة، لكنها تعيشها بغبطة، كما لو كانت خالية من أية منغصات. «أقبل بالمتاح» تقول بتسامح، فتجعله يقتنع بأن ما واجهه يمكن أن يمر به أي إنسان آخر.

عندما رآها للمرة الأولى كان قد مضى على رحيل يوسف ثلاث سنوات وخمسة أشهر ويوم. كان حزنه على أخيه لم يزل معتمًا كالعمى، ولم يكن يتصور أن هناك قوة تستطيع أن تخرجه من تلك العتمة. فقده بعد ثلاثة وأربعين ساعة من التعرف الحقيقي عليه، كان موته أثقل من موت أبيه، الذي لم يرحل إلا بعد أن عرف كل شيء عنه، وأصبح لديه ما لا يُحصى من اللحظات التي يستعيدها فيستعيده، حتى لو كانت لحظات حزينة.

بعد يوسف أحس أنه صار مجرد حشرة لا وزن لها، يمكن أن تسحقها قدم مستهترة دون أسف. أصبح عبوره بالقرب من شرطي مرور، أو سماعه سارينة نجدة كفيلًا بإفساد يومه. تجنب نشرات الأخبار وأية حوارات بين زملائه خارج إطار وظيفته. وكان من الممكن أن يظل هكذا، لولا أنه، لسبب مجهول، قرر ذات مرة أن يتخلى عن عزلته ويشارك في واجب العزاء بزوجها. في ذلك الموقف رآها وشق حُبُها قلبَه مثل قارب سباق فلق الماء بسرعة خاطفة، ناثرًا حوله الرذاذ المنعش.

لقاؤهما الثاني في شقته كان الحد الأقصى من البهجة الذي لم يتصور أن يبلغه. كانا قد تخلصا من ارتباك المرة الأولى. أحس أن الفرح يتقطر من كل جسمه، صرخ، صرخ، وضحك، ثم صمت للحظات قبل أن يتقلقل صدره بنشيج حاول أن يكتمه، لكنه انزلق في البكاء مثل سيارة هربت كوابحها على منحدر. بكى بهجة الاكتشاف، بكى تأخر الاكتشاف، بكى وحدته وافتقاده الأسرة. ثم أخذ نشيجه يتخافت حتى طفت ابتسامته فوق الدموع.

همس:

- عفوًا.

احتوته في حضنها:

- لا تعتذر.

- بكاء الفرح.

- أنت لم تتخلص من الإحساس بالقهر.

صمت مستغربًا فراستها، وأطلق أصابعه تتخلل شعرها.

بعد لحظة صمت همست:

- حبك للفراشات جعلك تنسى أن التماسيح موجودة في مياه النهر ذاته.

- الفراشات تموت بسهولة!

- والوحوش ليست خالدة.

- قُتل أبي وقُتل يوسف، ولم أعرف القتلة.

- المهم أن تعرف أن الموت لم يمت بعدهما، وذات يوم سيموت من قتلوهما.

- لماذا يُقتلان أصلًا؟

- لسبب لا نعلمه، تحتضن الحياة الشر والخير بالحفاوة نفسها.

اتسعت ابتسامته واعتصم بالصمت.

بين مقتل أبيه والثورة كانت الأحداث تتطور. مظاهرات واعتصامات أمام مجلس الشعب جعلت المرور في شارع قصر العيني مستحيلًا في كثير من الأيام، كان يختلس نظرة إلى الحشد ويمضي في طريقه بينما يتردد على سمعه صدى الصوت الكتيم الذي أصدره جسد صبري يعقوب الأزرق على المحفة المعدنية.

عندما سمع عن دعوات التظاهر التي حددت 25 يناير أحس بالخوف من اليوم الذي جاء بأسرع مما توقع، كان يوم ثلاثاء، وهو يوم كتيم بلا سمة تميزه؛ فلا هو في ثقل الأحد، يوم العودة من العطلة الأسبوعية، ولا هو في خفة الخميس، الذي تبدأ العطلة بنهايته. قرر التغيب عن العمل، ولم يغادر شقته. عند الحادية عشرة صباحًا اقتحمت سمعه همهمة بعيدة لهتافات. كان يعرف أن دعوات للتظاهر حددت الساعة الواحدة ظهرًا موعدًا لوقفات احتجاجية، «لعله صدى الأصوات اليومية، وربما لن يحدث شيء بالمرة» قال لنفسه، وعاد إلى سريره محاولًا الاسترخاء.

مع الوقت، بدأت الأصوات تقترب، وبين لحظة وأخرى يتوجه إلى شرفة الصالة التي تطل على الساحة الصغيرة ويستطيع منها كشف شوارع عائشة التيمورية ومحمد علي جناح وحسن مراد ومديرية التحرير التي تتفرع من الساحة مثل بتلات الوردة. لم يشاهد شيئًا طوال ساعات الظهيرة، لكن ظل بوسعه سماع الهتافات واضحة مختلطة بأصوات فرقعة تأتي من الميدان. مع اقتراب الغروب بدأ يسمع وقع الهرولة على بعد خطوات في شارع قصر العيني، ثم بدأ بعض الهاربين من كثافة الغاز يتدفقون من شارع قصر العيني إلى شارع محمد على جناح، ويقفون في الساحة الصغيرة، ليتخيروا اتجاهًا يهرولون فيه دون أن يُحكم عليهم فخ مطارديهم.

أخذت نتنة دخان قنابل الغاز تطبق على صدره، فأحكم باب الشرفة، وظل يتنقل بين القنوات التليفزيونية، يقارن بين المصرية والدولية.

مع تقدم الوقت لم يعد يميز بين الأصوات التي يسمعها من التليفزيون وما يصله مباشرة من الميدان. ومع منتصف الليل، بدأت الروائح تثقل صدره، ثم حل الصمت.

استيقظ يوم الأربعاء مبكرًا على رنين التليفون. رأى اسم يوسف يضيء الشاشة، أحس بالدفء. نقل إليه أخوه ما يقوله الإعلام الألماني. طالت المكالمة، ولم يكن سامي يريد لها أن تنتهي، وطمأن أخاه بأنه لن يغادر الشقة قبل أن تتضح الأمور.

بعد أن أغلق الخط عاد الصمت. لا صوت يأتي من الميدان. فتح التليفزيون، وأخذ يقلّب القنوات، بعضها يتحدث عن عودة الحياة الطبيعية لشوارع القاهرة ومختلف المدن التي شهدت مظاهرات، هناك ما تعد مشاهديها بكشف المؤامرة، وهناك ما تبث برامج عادية، بينما تتحدث القنوات الدولية عن فض عنيف لاعتصام ميدان التحرير في منتصف الليل، وعن تعهدات الشباب بمواصلة المظاهرات.

لم يطل الانتظار. بدأت الضجة في الجوار؛ فأخذ يوزع فضوله المرتبك بين الإنصات للأصوات القادمة من الخارج وبين البحث في قنوات التليفزيون المتضاربة، بينما تثقل صدره مجددًا الروائح النتنة لقنابل الغاز، قريبة وكثيفة، كما لو كانت تخرج من الشاشة.

لم يتلق أي اتصال من الشركة طوال اليوم ما شجعه على الدخول إلى فراشه بعزم البقاء في البيت الخميس أيضًا، وبعده ستأتي عطلة الجمعة والسبت «الأيام الثلاثة كافية لكي تتضح الصورة».

عندما نام رأى كابوسًا بغيضًا. كان يوسف مستلقيًا على بطانية يحملها أربعة شباب لم يرهم من قبل، وفي جبهته، بين حاجبيه فتحة محروقة الحواف. استيقظ مرعوبًا. انتظر ملهوفًا بداية نور الصباح وهاتف أخاه الذي لم يدع له فرصة لسؤاله عن أحواله، هو الذي سأل منزعجًا:

- سامي! هل أنت بخير؟

- بخير يا أخي، أحببت أن أطمئن عليك.

غاب صوت يوسف لحظات، وعاد يستفسر بإلحاح:

- أنا هنا بخير، ماذا لديك أنت؟

- أنا بخير، لم أخرج، لا تخف.

أخذ يتابع على شاشة التليفزيون ما يجري على بعد خطوات من شقته، محكمًا الأبواب والنوافذ التي لم تستطع حجب صيحة شقت الأفق مع غروب شمس الجمعة «تحيا مصر» زفرة ألم طويلة خرجت من عمق الصدور تخالطها زغاريد فرح، ارتجت لها الطبقة الزجاجية لباب الشرفة بأزيز مسموع، أشرع الباب؛ فرأى الشرفات الأخرى مزدحمة بالمحتفلين؛ أسر بكاملها تلوِّح بالأعلام التي بدت مثل

سرب ضخم من فراشات الطاووس التي رأى واحدة منها في طفولته ولم يرها بعد ذلك أبدًا. انتبه إلى أن صيحات الشرفات تجاوب صيحات الميدان التي تصل هادرة، وخلال لحظات امتلأت الساحة والشوارع المؤدية إليها بالمهرولين. عاد إلى داخل الشقة، رفع صوت التليفزيون وسمع خبر انسحاب الشرطة من الشوارع. ارتدى ملابسه على عجل واندفع إلى الشارع «لم أكن أريد شيئًا، ولم آمل بشيء» يتذكر تمامًا أن ما جذبه لم يكن الصيحة، بل الفراشات.

في لحظة وجد نفسه وسط الحشد المندفع مثل موج عقب انهيار سد، كان المهرولون يدفعون إلى جانبي الشارع حواجز المرور ويكتسحون في طريقهم فوارغ القنابل التي تشبه علب المياه الغازية، بينما لم تزل سحابات الدخان المهيجة للسعال معلقة في الهواء. كان يتعرف على معالم الطريق ويتبين المسافة المتبقية على الميدان من تصاميم الواجهات ولافتات المباني التي يعرفها جيدًا.

عندما اكتشف أنه صار داخل الميدان ابتسم للمرة الأولى منذ وفاة والده، ولم يكن وحده يفعل ذلك. كثيرون حوله كانوا يضحكون، وكثيرون اختاروا البكاء. بدأت موجات منعشة من الهواء النظيف تهب وتطرد نتانة الغاز. حاول تقريب ما يشمه من روائح يعرفها؛ فلم يستطع. «رائحة الأمل» قال لنفسه. استراح إلى الاسم الذي اختاره، وسيطرت عليه أمنية أن يشيع الاسم بين الناس منقولًا عنه «لِمَ لا؟ فكل الزهور كانت في البداية بلا أسماء، ثم حمل كل منها اسمًا اختاره

أحدهم اعتباطًا، وكل تركيبات العطور أخذت أسماءها من تهيؤات مخترعيها، وليس من روائحها». كان واضحًا أن الكثيرين ممن ازدحم بهم الميدان يعانون من إرهاق عدم النوم وحرقة الغاز في الصدور لكنهم سعداء، وكأنهم جميعًا يشمون ذات الرائحة التي منحها سامي اسمها للتو. غمره إحساس بأنه يعرفهم جميعًا.

أخذ يستوقفهم، ويختبر الاسم الذي اخترعه فيهم:

ـ هل تشم رائحة الأمل؟

ولم يلمس استغرابًا من الاسم. كان من يسألهم يصافحونه مبتسمين ويومئون بهزات من رؤوسهم لدعم الكلمات التي يزعقون بها ويتعذر سماعها وسط الضجة.

انتشرت العتمة، وشيئًا فشيئًا بدأ الظلام يهزم إضاءة الميدان الشحيحة، حينها جرَّب الهتاف. أحس صوته ضعيفًا، ونشازًا وسط التناغم الهادر حوله. يسكت محبطًا، ثم يحاول مجددًا، مستغربًا صوته. بعد عدة محاولات أحس أنه نجح. داعبت روحَه بهجةٌ لم يستشعرها منذ تلك اللحظة التي حدَّق فيها بوجه أبيه الساكن.

بعد العاشرة، بدأت الهتافات تتقلص، لصالح الخطابة والأغنيات الوطنية، وبدأ من يعتزمون العودة إلى بيوتهم في مغادرة الميدان، بينما أخذ الذين قرروا الاعتصام في تهيئة أماكنهم، وفرش بطانياتهم.

عند منتصف الليل انصرف قاطعًا شارع سيمون بوليفار، نحو شقته، برغبة في عناق كل من يراه. عندما فتح باب الشقة، طالع صورة أبيه.

جلس في مواجهة التليفزيون. أخرج تليفونه من جيبه، اكتشف ثلاث مكالمات فائتة من يوسف. صوَّب الريموت، وأخذ يتابع الأخبار. أحس برغبة في تناول شيء، رغم أنه ليس جائعًا. رفع صوت التليفزيون ودخل إلى المطبخ، حمَّص رغيفين في الفرن، ووضع قطعة من الجبن الأبيض، وقرن فلفل حار، وثمرة طماطم، قسَّمها شرائح؛ عشاء الأفلام الذي اعتاده. حمله وعاد إلى جلسته أمام التليفزيون، خفَّض الصوت، وأخذ يتأمل مشاهد الثورة في التجمعات الأخرى بكل المدن. رنَّ جرس التليفون مجددًا.

كان بوسعه أن يخفي عن يوسف نزوله إلى الميدان، لكنه لم يفعل، وأنهى المكالمة على إصراره المتفاخر:

ـ لا تخف يا أخي، لا تخف.

على مدى ثلاثة أيام، كان يستيقظ نشيطًا، يقضي النهار كله في الميدان، مأخوذًا بتلك الأسرة الضخمة المنوعة والمتناغمة تحت سماء من فراشات الطاووس. وفي الليل يسهر على مشاهدة ما جرى في ميادين المدن الأخرى، حتى فوجئ بوصول أخيه في صباح أول يوم من فبراير، في اللحظة التي كان يستعد فيها للخروج.

لولا فريدة، ربما كانت تلك التفاصيل قد اندثرت. حرصه على تزويدها بالحكايات جعل الوقائع حية. حكى لها مرات ومرات. لم يكن ولعه بالتصوير قد بدأ ليطلعها على صور للميدان من تصويره

هو، مع ذلك فالصور ومقاطع الفيديو متوفرة، لكنه يحس أنها لا تنقل كل شيء «تسجيل رائحة الأمل العصية على الوصف ليس في سهولة الإمساك بلحظة عشق بين قط وقطة» فكَّر بينما يُحكم الكاميرا على الحيوانين الشبقين، موثقًا لحظة ستراها فريدة ويغمرها خجل العذراء، عندما يوجه نظرها إلى رهز القطة فتنصرف عن متابعة الفيديو، وتقرصه في خده «طيب، طيب، يا نوتي».

**أخيرًا اهتدى القطان إلى اللحظة، وتشابكا. وضع سبابته وإبهامه على شاشة التليفون وأخذ يباعد بينهما لتقريب الصورة. امتلأ الكادر بنصفهما الخلفي. أدهشه تشابه حركتهما مع حركات البشر. بعد أن ضغط زر إيقاف التصوير فاجأته القطة بصرخة، ولم يشعر بالخذلان لأنه لم يلحق بها ليسجلها في مقطع فيديو. أحس على العكس بالارتياح لأنه لن يحمل مواءها المتفجع لحبيبته.**

اليوم، هو أجمل يوم اثنين في حياته، وعلامته الفارقة فريدة التي لا يريد أن يفارقها أبدًا، مثلما سيظل اليوم الذي قضاه مع يوسف أجمل ثلاثاء «لماذا استدرجته إلى الميدان؟!» قال لنفسه؛ ففقد رغبته في متابعة القطين.

لم تكن في نيته مغادرة البيت لا الأربعاء ولا أي يوم آخر طالما بقي يوسف. كان كل همه أن يقنعه بالعودة الدائمة إلى مصر. استيقظا متأخرين، وأعدا معًا الإفطار، واكتشف لدى يوسف شغفًا بالطبخ لم يعرفه عنه من قبل. بعد أن تناولا الإفطار دخل إلى المطبخ، أخذ يُفتِّش

الثلاجة والخزائن، يسأل عن دقيق ونشا ولوز ولبنة. تبعه ليرشده، وسأله:

ـ ماذا تريد من كل هذا؟

ـ ألا تريد أن تتذوق كيزهكوخن من يدي؟

تذكَّر سامي الفخر الذي كانت أليس تتحدث به عندما تقدم تلك الحلوى الألمانية وتشرح للضيوف عراقتها العائدة إلى الحقبة الرومانية. وفي مرة عقَّب أحد الباشاوات على شرحها:

ـ هذا تارت، مثل أي تارت فواكه يا أليس هانم!

وترد ساخرة:

ـ نعم، تارت يا باشا! وطبعًا التارت أصله فرعوني. هذا Kasekuchen!

بعد أن وضع يوسف القالب في الفرن جلسا في الشرفة وعادا إلى تبادل الحكايات بينما يراقبان الشارع. سمع سامي إشعار رسالة على تليفونه، كانت نداءً لحماية الميدان من هجوم وشيك للبلطجية. جمدت عيناه للحظات، ثم نهض دون أن يفكر، فتح باب الشقة وانطلق هابطًا السلم. أخذ يعدو ويوسف في إثره يحاول إعادته، حتى صارا داخل الميدان.

انزرق سامي داخل الميدان ويوسف من ورائه. كانت الأغاني مستمرة تقطعها الخُطب كما كانت في الأيام السابقة. يتناقل

المحتشدون أخبار الثورة في المدن الأخرى، بينما يجتهد كل منهم في إخفاء خوفه بعيدًا عن أعين الآخرين.

قبل أن يتمكن يوسف من إقناعه بالعودة إلى البيت بدأ الهجوم بالعصي والسيوف من فوق ظهور الجمال والخيل من جهة ميدان عبدالمنعم رياض، وفي لمح البصر أطبق الميدان على المهاجمين. اختفى الجيش المزركش المُعادي واختفت معه فراشات الطاووس في ذات اللحظة؛ نكس المعتصمون الأعلام، وانشغلوا بترقب الخطر.

تتابعت موجات من المهاجمين الراجلين، يضغطون على مداخل الميدان الأحد عشر، يحاولون اقتحامه بالحجارة والهراوات بينما احتلت مجموعات منهم أسطح العمارات، يلقون من فوقها بزجاجات المولوتوف. وانقسم المحاصرون تلقائيًا إلى مجموعات ثلاث، واحدة تستخدم قضبان الحديد في خلع بلاط الأرصفة وتكسيرها، وأخرى تجمع هذا الكسر وتحمله على البطاطين والألحفة وتجره بالقرب من خط المواجهة، وتضم الثالثة المدافعين الذين يتوزعون على مداخل الميدان.

اندفع يوسف إلى خط المواجهة وخلفه سامي مستثارًا يضحك دون أن يحسن التصويب، فانتقل إلى مجموعات جر الحجارة. يصهل كحصان يصعد مرتفعًا، بينما يساهم في جر البطانية المثقلة بالأحجار. عندما يصلون إلى خلف خط الدفاع، يترك لزملائه إفراغ الحمولة،

ويجري بحثًا عن أخيه، وعندما يراه يضحك مجددًا، ويهرول في إثر زملائه العائدين بالبطانية الفارغة إلى منجم الحجارة.

أخذ التراشق المتبادل بين المحاصرين والمهاجمين يتقاطع فوق الدبابات التي تقف ساكنة في المداخل، كأنها ملقاة هناك منذ بداية الكون. كلما تقدم الليل، صار الميدان أكثر عزلة، وكأنه لا ينتمي لأي مكان في الكرة الأرضية.

بدأ سامي يفقد إحساسه بالإثارة، بينما يستعيد ما قاله يوسف في التليفون عندما كان يحاول إثناءه عن الذهاب إلى الميدان «أخذنا ما يكفينا من الألم يا سامي» تردد النبر الجنائزي لكلمات أخيه يتردد في أذنه وبدأت كركبة الجليد في قلبه، ولم يكن أمامه سوى الاستمرار في العمل حتى فقد الإحساس بذراعيه وساقيه. وقف في مكانه وسط حركة المهرولين في كل اتجاه، نكَّس رأسه يتأمل الأرضية الكابية المليئة بالحجارة المتناثرة، أعجبته ضخامة الظلال المتقاطعة على الأرض «لو كانت أحجامنا بقدر ظلالنا ما استطاعوا أن يهاجمونا» أخذ يُقلِّب وجهه، يحاول أن يتسلى بربط كل ظل بأصله. انتبه إلى شعاعات من أنوار الليزر تأتي من بعيد، وتحط على الرؤوس، تتنقل مثل ذباب أخضر، من رأس لرأس بسرعة لا يمكن للذباب أن يطير بها. أحس بإحداها على وجهه، مد يده ليمسك بها فانتقلت إلى رأس رجل بجواره لم يلبث أن سقط متكومًا فوق ظله.

- رصاص!

صرخ أحدهم بقوة تتجاوز قدرات البشر، صيحة ليس فيها إلا الإحساس بالقهر جعلت الأنظار تتجه إلى المكامن المحتملة التي ينطلق منها الرصاص دون أن يهتدوا إلى مكان القناصة. تحلق بعضهم حول الرجل المتمدد، وأخذوا يتسمعون نبضه، تلاقت عيونهم حزينة قلقة، وعادوا للوقوف يمسحون الأفق بحثًا عن مصادر الخطر، بينما هرول البعض وعادوا ببطانية، فردوها على الأرض. انحنى سامي يساعد في حمل الرجل إلى البطانية، وأدرك أن الموت الذي تعرف عليه باردًا يابسًا في جسد أبيه، بوسعه أن يكون ساخنًا وطريًا. ارتفعت البطانية وأخذت تتأرجح في أيدي المهرولين الذين حملوها من أطرافها، وغابوا وسط الزحام.

تكرر سقوط الشباب الذين يحملهم زملاؤهم في البطاطين إلى المستشفى الميداني. سرت الهمهمات حول وجود قنَّاص على سطح العمارة التي تحتل ناصية شارع شامبليون. بعد قليل انطلقت التكبيرات، وقيل إن الثوار تمكنوا من اقتحام العمارة التي كانت مغلقة، وألقوا بالقنَّاص من فوقها، لكن الموت استمر؛ فأشارت التخمينات إلى فيلا في شارع الأنتكخانة، ثم كوبري أكتوبر، خلف تمثال عبدالمنعم رياض، ثم الفندق الشاهق الشاحب خلف التمثال والكوبري.

صار الموت أكثر من أن تحمله البطاطين أو يستوعبه المستشفى الميداني ونقاط الإسعاف المتعددة التي أقيمت على عجل وسط

الميدان، ودخلت سيارات إسعاف تنطلق بحمولاتها إلى مستشفى قصر العيني، في مسار ليس آمنًا تمامًا. أخذ سامي يجري كالمجنون بحثًا عن يوسف الذي كان بدوره يبحث عنه. تواجها وتعانقا «هل يعرف أحد في العالم حقيقة ما يجري هنا؟» فكّر سامي، متمنيًا أن يخرج حيًّا مع شقيقه من الميدان أو يموتا معًا. أخذا يتحركان متلازمين. بين وقت وآخر ينظر إلى ساعته، فيجد أن ما حسبه ساعة، لا يتجاوز بضع دقائق، يقارن بين ساعة يده وساعة التليفون فلا يلحظ أي خلل في إحداهما.

كانت معنويات الجميع تتداعى. أخذت النساء في تحميس المدافعين بقرع حديد الإفريز الذي يؤطر الأرصفة حول الميدان، بينما تبث الإذاعة الداخلية أخبارًا عن مدد قادم من حي شبرا، ثم من جهة الهرم، ثم المهندسين. عند منتصف الليل، كان الإعياء واضحًا على وجه يوسف، وكان سامي متعبًا وخائفًا، لكن شعوره بالندم على استدراج أخيه إلى الميدان كان أقوى من تعبه ومن خوفه.

عندما استبد بهما الإعياء، شابكا يديهما وسارا نحو الكعكة الحجرية وسط الميدان ليستريحا. وقفت سيدة منقبة في وجهيهما، تحاول إثناءهما عن التقهقر بالصياح:

- يا بختك يا مؤمن، الشهادة في انتظارك.

رد يوسف بتلقائية:

- نحن هنا بأمل أن نعيش.

تجاوزاها، وانتبها في مشيهما المتأني إلى ما لم يلاحظاه حتى تلك اللحظة. كان العديد من الشباب يلفون رؤوسهم بكوفيات أو بقطع من ملابسهم، وبعضهم اعتمر حلة الطعام كخوذة. توقف يوسف، ونظر إلى تحت قدميه. كان هناك الكثير من علب الطعام الفارغة والأكياس البلاستيكية، استوقف سامي:

ـ انتظر، سأصنع لك خوذة.

وأخذ يجمع المهملات؛ أطباق جبن من البلاستيك، علب مكرونة من الألومنيوم، علب كشري من الورق المقوى، وضع كل هذا على رأس أخيه، وألبسه فوقه كيسًا بلاستيكيًا، ربط طرفيه تحت الذقن، وثقب في الكيس فتحة للوجه، بينما وقف سامي يبتسم مستمتعًا ثم تحسس خوذته وقال:

ـ دوري، لأصنع لك واحدة.

عندما اكتملت خوذة يوسف استأنفا سيرهما. أخذ سامي يتشمم، ويحاول فرز الروائح التي تجلل رأسه. كانت رائحة الكشري غالبة، وقد سال خط من الصلصة على خده، أخذ يمسحه متأففًا. ضحك يوسف بصوت عال، وهتف:

ـ أتعرف ماذا تذكرت الآن؟

قال سامي:

ـ مخابئ الجاتوه؟!

تصاعد ضحك يوسف، حتى أثار استغراب من حولهما. كان عيد ميلاد يوسف، وكان معهما ولد وبنت من أولاد الجيران. كان الأربعة يلعبون في غرفة الشقيقين، يرتدون طراطير ذهبية بأذناب ورقية ملونة. أمر يوسف الثلاثة بالتهام أطباقهم من الجاتوه وإلا تعرضوا لعقابه، وأمهلهم أن يفعلوا ذلك حالما يعد من واحد إلى عشرة. أغمض عينيه وشرع بالعد، عندما فتح عينيه أبصر أطباق الثلاثة خالية تمامًا، استغرب أن يكونوا قد التهموها بتلك السرعة، لكنه اكتشف من مشيتهم الحذرة أنهم التقطوا قوالب الحلوى من الأطباق ووضعوها على رؤوسهم تحت الطراطير.

- كان إخفاء الجاتوه فكرتي، كنت أخافك.

قال سامي، وتشبث بيد أخيه مجددًا. استأنفا سيرهما، دون أن يخفي سامي تقززه من رائحة صلصة الكشري النفَّاذة.

سيحكي اليوم تلك الواقعة لفريدة، ويعتذر لها عن عصبيته أمس عندما رفض اقتراحها بتناول الكشري. كان عليه أن يعتذر فورًا، لكن مطعم البيتزا كان ملاصقًا للكشري «سأعتذر لها عندما نجلس» قال لنفسه بينما يتقدمها ممسكًا بيدها يشق طريقهما وسط الزحام. عندما جلسا أخذ ينظر في عينيها ويبتسم بينما يحتضن قدمها بين قدميه تحت الطاولة ونسي أمر الاعتذار، وفي السينما كان مشغولًا بِعدِّ أصابعها، كلما انتهى من يد تناول الأخرى ليبدأ من جديد، ولم يكن صوته ليصل إليها لو حاول أن يشرح لها موقفه من رائحة صلصة الكشري وسط

صيحات المشجعين أثناء المباراة أو تحت ضجة الطبول والمزمار البلدي في مواكب الاحتفال.

طالما ظل أحبابنا على قيد الحياة تظل لدينا الفرصة للتعبير عن حبنا لهم، للاعتذار عما قد نرتكبه من إساءة بحقهم، لكن الموت قاسٍ، يجعل حبنا بلا نفع ككتاب غير مقروء، ويترك اعتذارنا معلقًا حتى يتحور ويصبح ندمًا تلتصق شرنقته بجدار الروح، ولا تكف عن الوخز إلا بموتنا.

عندما وصل مع يوسف في تلك الليلة إلى القاعدة الدائرية الضخمة المغطاة بالنجيل، كانت موحلة، باستثناء جزء صغير لم يغمره الماء مفروش بالبطانيات للراحة. أفسح الشباب القائمون على المكان لهما، وصب أحدهم كوبين من الشاي. شرب يوسف كوبه في لحظات واستلقى جامعًا ركبتيه إلى بطنه، نشر أحد الجالسين فوقه بطانية، وسرعان ما سمع سامي شخير أخيه. استمر جالسًا بجواره دقائق قليلة، وعندما أحس أنه استراح عاد إلى العمل. أخذه فضول أن يجرب نفسه في خلع البلاط. انتظر حتى تعب أحدهم وتناول منه قضيب الحديد الذي يغرسه تحت البلاطة فيتعتعها من مكانها. أخذه الحماس حتى ترصعت يده بفقاعات مائية بدأت تنفجر.

عاد إلى الكعكة الحجرية ينفخ في يديه لتقليل حريقهما. لم يجد يوسف تحت البطانية، ولم يقو على العودة للبحث عنه.

استلقى مكانه الذي أحسه دافئًا لم يزل، واستغرق في النوم فورًا. ربما نام خمس دقائق لا أكثر، ثم قام للبحث عن أخيه. لاحظ أن

ضغط المهاجمين يتناقص، وفي الوقت نفسه كان عدد المحاصرين يبدو أقل من نصف العدد عند إغلاق الميدان بعد ظهر اليوم السابق. صارت هناك بقع خالية بين حلقة وأخرى من المعتصمين تكشف عن حجم الخراب الذي حل بالأرضية، حيث تناثرت حشوة الأرصفة من الرمال، مع بقايا البلاط وكسر الرخام الذي ظل يتساقط على المعتصمين طوال ساعات. جاب الميدان طولًا وعرضًا، ولم يعثر ليوسف على أثر. أحس بانهيارات الجبل الثلجي في قلبه.

«يوسف، أخي!» صرخ كالمجنون واندفع إلى المستشفى الميداني. رأى صفًا من الأكياس السوداء متراصة على الأرض. لم يخطئ جسدَ أخيه. توجه مباشرة إلى كيس وفتحه فرأى وجه يوسف بجرح محترق الحواف في منتصف الجبهة أعلى حاجبيه تلتصق به أطراف بلاستيك محروقة، كما رآه بالضبط في الكابوس الذي أيقظه قبل أسبوع. داعب شعره المدبق ببقايا الطعام، وأعاد تغطية وجهه في هدوء. طلب المتعلقات، فأخرج أحد الشباب كيسًا، وأخذ يعدد له محتوياته: التليفون والساعة والمحفظة، وأراه الباسبور لكنه احتفظ به في يده، وقال:

- لحظة، سنصوره أولًا.

سأله سامي:

- لماذا؟

رد الشاب، بينما يمضي إلى ماكينة نسخ في زاوية من مدخل المستشفى:

ـ لابد من التوثيق.

تداعى في مكانه، وبعد لحظات عاد الشاب ومد يده بجواز السفر المبقع بالدم. بعينين زائغتين أخذ سامي يرقب توافد الجرحى والقتلى إلى المستشفى حتى الصباح، يتابع حركة المتطوعين الذين يتولون إسعاف المصابين وفرز جثامين الثوار من جثامين البلطجية.

بعد صلاة الظهر خرج نعش يوسف من مسجد عمر مكرم ملفوفًا بالعلم، وسط نعوش سبعة وثلاثين شهيدًا، ثم تفرقت الجثامين على سيارات لنقل الموتى أحضرها متطوعون. أخذ شقيقه في إحداها، وانطلق إلى مقبرة الأسرة في الإمام الشافعي.

- يوسف يا أبي!

قال، بينما يشارك اللحَّاد في وضع جثمان أخيه بجوار الهيكل المفكك لأبيه.

سامي الذي عرف الألم عندما نظر في وجه أبيه الساكن، وتمكن بعد وقت قصير من فرز الخير من الشر، رفض بتصميم عنيد أن يتعرف على معنى الفخر في رصاصة اخترقت مخ أخيه فسرقت حياته «لماذا ينبغي أن يموت هكذا؟» رأى في زغاريد الأمهات التواءً في الإدراك مقبضًا كالموت نفسه.

أدرك أن الشر الذي التقى به يوم 18 يونيو عام 2008 كان بسيطًا. صحيح أنه لم يعرف من قتل أباه، لكنه يعرف أن المهندس صبري يعقوب مات في الحجز ولحساب ماذا بالتقريب. كانت الأشياء واضحة والبشر مثل البهائم والحشرات؛ يغيرون جلودهم على فترات متباعدة، ولم تكن القشرة الجافة التي تتركها سحلية وراءها تتمخض عن ثعبان. كانت السحلية تجدد جلدها وتبقى سحلية، مثلما لا تنتهي سلق عباد الشمس بزهرة عصفور الجنة.

رائحة الأمل التي استنشقها يوم 28 يناير 2011 تمخضت عن رصاصة بين حاجبي يوسف المقرونين الجميلين . تبددت الرائحة ومعها حياة أخيه دون أن يعرف من قتله ولصالح من أو ماذا. منذ تلك الساعة من فجر الخميس 3 فبراير 2011 أخذ الشر يوغل في الخداع. لم يغادر القنَّاص الخفي أسطح العمارات العالية والأقبية الغامضة، ولم يعد الذين يقنصهم يحظون بلقب الشهيد أو يزفون إلى قبورهم بالزغاريد.

بدأبه في فرز الفراشات وتصنيفها شرع يرصد في وحدة لياليه الطويلة تحولات البشر، يتراهن مع نفسه على اللحظة التي ستتخلى فيها سحلية عن قشرتها الهشة فتسفر عن ثعبان، أو الخروف الذي ستنمو على رقبته لبدة ويصير أسدًا. في الصباح، يلتزم الحذر. يضع السمَّاعات على أذنيه، متظاهرًا بأنه لا يسمع شيئًا من احتراب زملائه أثناء رحلة الذهاب والعودة بالأتوبيس وطوال ساعات العمل في

المكتب. كانوا يختلفون على توصيف الحملان والنمور دون أن يتوصلوا إلى نتيجة أو يتفقوا على شيء. مع الوقت لم يعد الإقناع هدفًا للمتخاصمين همسًا، بل إيحاء كل منهم للآخر بقدرته على الوشاية به.

تحول الناس إلى حشرات مذعورة تنقل في أرجلها لقاح الخوف أينما تحركت، واستمسك سامي بدرع الجمود، حتى نظر في عيني فريدة، فذاب حزنه الكسير في شجنها المترفع.

انتشله حبها من قاع المستنقع، وأخذ يجدِّف بسهولة فوق سطح الحياة مستعيدًا ابتسامة طفولته مرة أخرى. بدأ يحس غبطة كونه حيًا، وأصبح أكثر رضًى عن بقائه في جاردن سيتي؛ الحي الذي يعيش زمانه الخاص، لا تتحسن أحواله أو تسوء مهما حدث. لو كان يسكن في أي حي آخر ربما لم يكن ليجرؤ على النوم خلف باب دون قفل، بينما بوسعه في جاردن سيتي أن يرد بابه ردًا فحسب حتى تتمكن فريدة من الدخول دون جلبة. يستمتع عندما يفتح عينيه فيجدها واقفة فوق رأسه تتأمله. يمد يديه ويجذبها نحوه، يتحسس وجهها كي يستكمل استرداد وعيه «أنتِ هنا، بجد؟!» ويُقبّلها على رقبتها فيكتمل صحوه.

**اليوم سيكون مختلفًا، سيرى بيتها، وعندما تحادثه في التليفون فيما بعد سيكون بوسعه أن يتخيل بالضبط الفضاء الذي تتحرك فيه.**

**وها هو يلهو في انتظار مكالمة منها تأذن له بالصعود، وقد حملته المصادفة إلى هذا المكان المتوهج بزهور البونسيانا وشبق القطين.**

# 5

توقف القطان عن نزال الحب.

تخلت أنياب الذكر عن رقبة الأنثى. لبث ساكنًا لحظات، قبل أن يحررها من ثقله. استلقت القطة السوداء النحيلة، ودار القط حولها، ثم استلقى ملامسًا برأسه بطنها. حدَّق سامي فيهما فرأى ظل ابتسامة شريرة على وجه الذكر الشارد، بينما لم ير في بؤبؤ عيني الأنثى سوى الفراغ الشاخص خلف طبقة زجاج كهرمانية جامدة.

فكَّر: من ينظر إلى تبرمهما في هذه اللحظة لا يمكن أن يصدق أنهما كانا يتسافدان منذ لحظة، وعاد يتأمل القطين اللذين لا يبدو عليهما أنهما يحسان ما يحسه هو وفريدة بعد جولة حب. خطر له سؤال غريب: هل للقطط أرواح؟ «طبعًا. لديها فائض أرواح. يقولون سبعة» أجاب على نفسه، ولم يلبث أن تساءل. هل تشابكت الأرواح الأربعة عشرة لهذين القطين قبل أن يتزاوجا أم أن ما جمعهما هو احتقان الشهوة؟

اتسعت ابتسامته للخاطر الذي طاف برأسه؛ فقد تخيل الروح طرف حبل يبرز من الجسد ويظل يجرجر، يكنس التراب والأوساخ

إلى أن يتشابك مع حبل آخر. وقد تشابكت روحه مع روح فريدة أمام دار المناسبات، وأخذ التعقيد يتزايد فيقصر الحبلان وتتقلص المسافة بين الجسدين حتى انطبق أحدهما على الآخر.

**في لقاءاتهما الحميمية يشتعلان وينطفئان معًا، لكن روحيهما المتشابكتين لا تتركان لهما فرصة للابتعاد. يستلقيان متماسين يتكلمان ويتكلمان بينما تلمع عيونهما بالغبطة.**

**روحه المربوطة بروحها هي التي تدفع أصابعه الشبعانة إلى الاستمرار في تلمس جسدها المفعم بالسكينة.**

**هل الروح خالدة لأنها لا تشبع؟ هل النهم هو التعبير عن ولع الخلود؟**

**أدهشه أن يفهم في لحظة خاطفة كهذه ما لم يفهمه من قبل عن نفسه، قال بثقة «نعم، وهذا النهم إلى الخلود هو ما يجعلني أشتهي صاحبات فريدة».**

اختلس نظرة أخيرة إلى القطين، ونظر إلى ساعته. التاسعة والثلث «ستتصل بين دقيقة وأخرى» فكّر، ووضع التليفون في جيبه، ومضى يُصفِّر لحنًا واضحًا في قلبه دون أن تتقنه شفتاه. تخيل مجددًا رد فعلها عندما يطلعها على الصور. أخذ يتدافع في خطوه بينما تتسع ابتسامته.

هاجت سعادته عند الزاوية الأخيرة للسور الطويل، وقبل أن يقفز عن الرصيف باتجاه الناصية الأخرى حطت يد على كتفه وثبتته في

مكانه. لابد أن صاحب تلك القبضة كان يتتبعه حتى لحق به وتمكن من كبش كتفه في اللحظة الأخيرة.

لم يمنعه من سماع وقع خطوات الرجل خلف ظهره إلا صخب القلب. التفت بدهشة إلى الأصابع المغروسة في كتفه كمخالب نسر، ثم امتدت نظرته مع الذراع التي تحملها، وشرع مذعورًا يكتشف بقية الرجل الممشوق، الذي سأله:

- كنت تصور؟

حدَّق في الرجل بابتسامة ذاهلة، وأجابه:

- نعم.

صرخ فيه الرجل:

- ما الذي يبعث على الابتسام الآن؟ أعطني التليفون.

أحس سامي بغطرسة الأمر، غامت عيناه، وقال بما أمكنه من الهدوء:

- إذا كان لديك اعتراض، سأمحوها.

- لماذا تبحلق فيَّ هكذا؟ أعطني التليفون.

انتبه إلى المسدس المعلق في خصر الرجل الممشوق؛ فردَّ مسيطرًا على نبره ليبدو هادئًا:

ـ لا توجد، لا..لا.. لافتة تحذر من التصوير.

لم يرد الرجل، ورفع يده، وراح يحرك أصابعه في إصرار طلبًا للتليفون؛ فعاد سامي يستسمحه:

ـ أنا لا أعرف أساسًا ما هذا المبنى.

زفر الممشوق، بينما تكرر أصابعه الأمر بضيق. مد سامي يده بالموبايل تجاهه. انتزعه الرجل بعنف، وحاول فتحه فلم يتمكن. قرّبه منه، وبالهدوء الصارم نفسه أمره:

ـ افتح.

مد إبهامه ولمس دائرة الفتح، فأضيئت الشاشة بإشارات تململ دون أن تفتح. قال بنبرة أراد أن تنقل تماسكه:

ـ أرجو تعديل وضع الهاتف ليستقبل البصمة.

رد الممشوق بصلافة:

ـ افتحه من هذا الوضع.

وهيأ له التليفون مرة أخرى. أحس أنه أصبح مكشوفًا مهما فعل؛ فلم يحاول الفتح بالبصمة، بل بالرقم السري. تعمد أن يضغط الأرقام بتأن مكّن الممشوق من متابعة حركة إصبعه، وما أن أضيئت الشاشة، حتى فتح الممشوق تطبيق الكاميرا، وبدأ باستعراض الصور، وأخذ يتطلع معه إلى نتف من حياته المخزونة في لقطات تجري متابعة «ليس فيها ما يُقلق» فكّر، وعاد ليشرح بأقصى تماسك ممكن:

ـ ها هي، آخر ثلاث صور ومقطعا فيديو.

تمنى أن يمحوها الممشوق ويعيد إليه التليفون، لكنه لم يفعل. استعرض الفوتوغرافيا وشاهد الفيديو مرة بعد أخرى، ثم تطلع إليه يتفرسه، ولم يَبدُ على ملامحه أي انطباع، بينما رأى سامي في عينيه ذلك الفراغ المتعالي ولذة الأذى القططية.

**بعكس الوحوش الأقوى كالأسود والنمور، لا تصطاد القطط لمجرد أن تأكل، لكنها يمكن أن تفعل ذلك لمجرد التلذذ بذعر الفريسة، تغرس أنيابها في حبلها الشوكي وتشل أعصابها، ثم تشرع في التلاعب بها بتأن. وقد بدأ سامي يحس أنه فأر مسلوب الإرادة، تعاني كتفه من ألم مخلب الممشوق الذي يتخير بعض الصور ويُكبِّرها ليفحصها بعناية أكبر.**

استعرض كل الصور مرة بعد مرة، ثم نظر إلى سامي من فوق إلى تحت ومضى متمهلًا بالتليفون في يده، دون أن ينظر وراءه واثقًا من سير الفريسة في إثره.

توقف بعد خطوات وبإيماءة من رأسه أمر رجلًا ربعة يقف وراء البوابة، بالخروج للتحفظ على الفأر الساكن على الرصيف، واستأنف سيره بتؤدة. عبر البوابة وراح يقطع الفناء فوق سجادة الزهور. تعلقت به عينا سامي في محاولة لرؤية طرف الحبل الذي يجرجر وراءه ليعرف أي روح تسكنه. انتبه إلى اختفاء القطين من الفناء. مسح

بنظرته أكبر مساحة يستطيع رؤيتها من خلف تشبيكات حديد البوابة وقضبان السور فلم يعثر لهما على أثر؛ كأنهما كانا خيالًا. سمع في قلبه الصوت الكتيم لانهيار الجليد، وأحس بعرق بارد ينحدر على عموده الفقري شغله عن تتبع الممشوق؛ فلم ير أين اختفى. سحب نظرته من الفناء وأخذ يرمق الربعة الذي يكاد يلتصق به. انتبه الرجل إلى تحديقته؛ فشد قامته، وأخذ ينتفش حتى صار أكثر امتلاء وطولًا مما كان في اللحظة التي استدعاه فيها الممشوق. « صاحب المرتبة الأقل يمكن أن يتكلم» فكّر سامي، وحاول أن يحمله على الحوار:

ـ كما ترى، لا توجد لافتة تمنع التصوير.

لم يرد الرجل. وعاد سامي بنبرة حمَّلها كل إمكانات الصوت البشري من التودد:

ـ في العادة، يكون هناك تحذير.

حافظ الرجل على صمته، فسكت سامي، وأخذ يتطلع إلى عينيه اللتين ظلتا فارغتين ولم ترمشا. بعد لحظات ظهر ربعةٌ آخر قادمًا من خلف البوابة، رفع ذراعه وبرم يده مستفسرًا من زميله:

ـ ماذا لديك؟

ـ كان يُصوِّر.

عبر الربعة الجديد البوابة نحوهما، ووقف دون أن يقول شيئًا. صار سامي بين الربعتين مثل بندقة بين فكي كسَّارة. ربما جاء الربعة الثاني

من تلقاء ذاته، وربما أرسله الممشوق.

جرَّب سامي حظه مع الجديد:

ـ لأية جهة يتبع هذا المكان؟

ـ ستعرف.

رد الرجل بغلظة، لكنه رد على أية حال؛ فعاد سامي إلى تأكيد جهله بطبيعة المكان:

ـ صدقني، لو كنت أعرف ما كنت أقدمت على التصوير.

لم يرد، وزجره الربعة الأول بنظرة، ثم عمَّ الصمت. تمنى أن يتكلما مع بعضهما بعضًا، أن يسأل أحدهما الآخر عن ابن مصاب بنزلة برد، عن زوجته التي يمكن أن تعاني آلام الروماتويد، مثلًا، أو عن نفسه حتى. ليس من الغريب أن يكون أحدهما بصدد التعافي من نزلة برد؛ فهذه النزلات تكثر في أوقات تغير الفصول مثل هذا الوقت، ثم إن المرض ليس الموضوع الوحيد للحديث بين زميلين. من الممكن أن يتحدثا عن العودة إلى المدارس التي بدأت هذه الأيام، كيف تدبرا أمرهما مع أسعار الزي المدرسي التي أصبحت بعيدةً عن متناول الكثير من الناس. عن موعد صرف الحافز الشهري، أو عن مباراة الأمس. عن أي شيء يمكن أن يبرز طرف روح أحدهما ويفتح ثغرة لسامي يدخل منها ويجامله بدعاء أو أمنيات طيبة، أو يمنحه

نصيحة قد يستحسنها. لكن الربعتين واصلا الصمت، فصار الوقت ثخينًا وثقيلًا، من النسيج الخشن الذي عرفه في ليلة الثاني من فبراير 2011. أخذ يستعيد مشاهد الليلة الرهيبة حتى اللحظة التي طالع فيها وجه يوسف؛ فقال لنفسه «ماذا يمكن أن يحدث الآن أكثر؟!» وكإجابة على هذا التساؤل، شد قامته.

لكنه لم يكد يشعر بقوة اللامبالاة تسري في نفسه حتى عاد إلى الانكماش، والتفكير بالربعتين «طالما لم يعطس أحدهما سأفعلها أنا» أخرج من جيبه منديلًا ورقيًا متجعدًا وقرّبه من وجهه، وتمخَّط بعنف، لم تسفر العملية عن شيء؛ فكحَّ وبصق في المنديل، وكوَّره مطبقًا عليه راحة يده. رمقه الربعتان دون أن يقولا شيئًا.

حطت ذبابة على يده، وأخذت تتنقل فوق أصابعه المطوية على المنديل المتسخ، رفع يده بهدوء حتى لا تطير، وأخذ يتأملها. كانت قوائمها تتراقص بينما تحاول التوازن رافعة جناحيها، ثم طارت وحوَّمت لحظات وعادت لتحط على أنمل خنصره، أخذ في فتح قبضته بهدوء على أمل استدراجها. لم تُفوِّت الذبابة فرصة الاقتراب من البصقة، وتهادت هابطة من فوق أظفر الإبهام إلى قمة المنديل في راحة يده. استغل الفرصة، وبكل إحساسه تجاه الرجلين هوى بكفه الأخرى على الذبابة فسحقها ولملم المنديل حولها. تلفت بحثًا عن سلة مهملات ولم يجد؛ فأطبق يده على الكفن الفضفاض بالجثة الصغيرة داخله.

رمقه الربعتان بنظرة زجاجية، لا يبدو فيها أي أثر الألم أو دهشة، ولم يصرفا انتباهًا أكثر لإحكام الحراسة عليه، كأنما اعتادا هذا المشهد خلال مدة خدمتهما الطويلة.

حدَّق فيهما، مُرَكِّزًا نظرته على الخصرين المتينين. استدعى قدرات طول النظر التي تمتع بها في طفولته؛ فرأى حياة عادية، بل بائسة للرجلين مختفية خلف قشرة الصمت المتعالي.

منح الربعة الأول ذا الملابس غير المهندمة زوجة تخونه، وأمًّا مريضة «ماذا تمنحه أكثر يا سامي؟» ربما يناسبه كذلك أب يستثير استهجان كل من يعرفه بألفاظه الفظة. جعل الربعة الثاني يعاني من القولون العصبي، ولا يكف عن إخراج الريح والضرط بصوت عال. لم يتزوج حتى الآن. تقدم لأربع فتيات لم تقبله إحداهن. لكن قطعة فولاذ شريرة تتدلى من الخصر تخفي كل ذلك.

الآن كل منهما مجرد فخذ مشدودة فوقها خصر برميلي يتدلى منه مسدس.

تسحبت نظرته تزن الربعتين مجددًا، نقل في خياله أطراف الممشوق ورأسه للربعة الأول، حصل على حيوان مثل البطريق، وترك الممشوق مجرد قُرمة، مثل بقايا مانيكان تعرض للتخريب!

غيَّر وضعية وقفته ببطء وحذر، حتى لا يعتبرا حركة تململه استعدادًا للفرار «يمكن أن يسحبا المسدسين ويضغطا فأصبح غير موجود على الفور».

تذكّر حيوات يوسف المخترعة «لا تقتصر قدرتهم على بتر المستقبل فحسب، بوسعهم كذلك تغيير الماضي، ستصبح لي حياة أخرى غير التي عشتها».

بعد مقتل يوسف، ابتعد عن كل ما يمكن أن ينقل إليه لقاح الخوف. مناقشات العمل، الصحف، والتليفزيون باستثناء قنوات الأفلام، لكنه رأى بمحض الصدفة صورة أخيه على الشاشة.

كان يعبث بالريموت في مساء يوم 13 أبريل 2015 بحثًا عن قناة تعرض فيلمًا لم يشاهده من قبل. تعثر في قناة من تلك التي حرَّمها على نفسه. كان المذيع يُلوِّح بصورة جواز سفر يوسف ويصرخ «جاسوس، جاسوس يهودي، اسمه يوزوف جاكوب» ثم عاد إلى تعريب الاسم للمشاهدين «يمكنكم أن تقرأوه بالمصري يوسف يعقوب». تسلل يوزوف إلى الميدان، وعندما قُتل دُفن كشهيد! ثم صرخ بصوت أعلى «حسبوه علينا شهيدًا في نكسة يناير» وفجأة اختفى انتفاخ شرايين رقبته، وخاطب بلهجة هادئة فريقه في الكنترول لتقريب الصورة. أخذت صفحة الباسبور تكبر تدريجيًا حتى ملأت الشاشة وتضببت صورة يوسف، بينما كان الاسم مطموسًا تحت بقعة الدم. وعادت صورة المذيع لتحتل الشاشة «أرأيتم؟» صرخ في المشاهدين الذين يتوقعهم في هذه الساعة، وانتفخت أوداجه مجددًا، بينما يشرح المؤامرة الأجنبية على مصر.

أحس سامي لوهلة أن الدرع التي اختفى تحتها ست سنوات وسبعة أشهر تتفتت وتترك روحه مكشوفة لوخز الإبر. حاول استعادة هدوئه دون جدوى، ولم ير النوم في تلك الليلة.

في الصباح، أحس ببعض الارتياح عندما لم يأت أحد من زملائه على ذكر للجاسوس الألماني يوزوف جاكوب. وفي المساء كان مثل فراشة تحوم حول النار، تأكله يده كي يبحث عن قصة يوسف في التليفزيون مجددًا، واكتشف بالفعل أن العرض متواصل بإضافات جديدة. جلس متوجسًا من تطرُق المذيع إلى حياة يوسف الحقيقية، لكنه لم يفعل؛ فأخذ يتابع الحياة المختلقة لأخيه بدهشة.

في الليلة التالية وجد أن القصة انتقلت إلى قناة أخرى، تكشف عن تفاصيل حياة ثالثة ليوسف، ثم رابعة وخامسة في قنوات جديدة. هكذا، صارت ليوسف حيوات متعددة؛ في بعضها صار إسرائيليًا محضًا، وفي أخرى يحمل الجنسية الإسرائيلية بجانب الألمانية، في واحدة يُقسِّم إقامته بين تل أبيب وبرلين، في أُخرى يتنقل في أوروبا، مرة يعمل في جمع المعلومات، ومرة ضالعًا في تهريب السلاح للطرف الغامض الذي قتل المعتصمين، وفي مرة صار مدرَّبًا محترفًا على التخريب وإثارة الفوضى «كل هذه الحيوات ليوسف، ومع ذلك لم تبق له واحدة» قال متأسيًا، وعاش أيامًا من القلق، يخشى عودة زوار الليل على الأقل لتهديده، لإفهامه أنهم يعرفونه ويعرفون تاريخ أبيه وأخيه، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث.

**أدرك أن يوسف ليس مقصودًا لذاته، لكن حيواته المخترعة تخدم رواية كبرى يجري بناؤها كل ليلة، أبطالها شباب لم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم؛ بعضهم مات وبعضهم في الحبس والبعض هاجر. «يوسف من القسم الأوفر حظًا الذي استراح، ولم يعد هناك ما يمكن أن يؤلمه» قال لنفسه، ولملم روحه تحت درع الجمود المُهشَّم، حتى انتهت العروض كما بدأت.**

فكِّر في الحيوات العجيبة التي يمكن أن يحصل عليها إذا ما تعرض للقتل الآن. لن يقولوا إنهم قتلوا شخصًا لمجرد تصويره قطًا وقطة يتزاوجان. ستصبح له حياة إرهابي خطير أو تاجر مخدرات أو قاطع طريق مسئول عن كثير من عمليات الترويع وخطف السيارات على الطرق الصحراوية. وستجد القنوات التليفزيونية بين موظفي الشركة من يحدثهم عن مهندس غامض لم يعرفوا يومًا ما يخبئ خلف صمته، وجيرانًا يتحدثون عن شاب وحيد تزوره النساء، وستدفع المنافسة بعض القنوات التليفزيونية والصحف للعثور على زملاء دراسة يحدثونهم عن طفل غريب الأطوار لم تزل ذاكرة براءتهم تحتفظ بقدرته على الانتقام، وتتذكر ابتسامته وتحديقة عينين جاحظتين تستخفان بالخطر.

طال غياب الممشوق بالتليفون في الداخل وبدأ قلق سامي يتركز حول فريدة «ماذا لو اتصلت الآن وردوا عليها؟ هل يمكن أن يستدعوها إلى هنا؟».

تمنى أن يحدث له أي شيء دون أن تتعرض للأذى «هي لم تفعل شيئًا لكنه لا يضمن سلوك هذه القطط التي تصطاد من أجل المتعة» أخذت الأفكار السيئة تتوالد، ويشعل بعضها بعضًا. سيعيدون فتح صفحات أبيه ويستدعون الحلقات التليفزيونية عن الجاسوس يوزوف جاكوب، وأيًا ما كانت الحياة التي سيمنحونها له، فإن التعرض لعلاقته بها سيحطم حياتها.

تذكَّر صديقاتها، وأحس أن علاقتها بهن ستتعرض أخيرًا لاختبارها القاسي. هل سيكون بوسعهن الإبقاء على صداقتها بعد أن تنكشف حياتها على الملأ؟ قفزت إلى ذهنه ثريا، زوجة الضابط، وانشرح قلبه للحظة وكأن طاقة نور ومضت في النفق. من الممكن أن يسوي زوجها كل شيء إذا ما طلبت منه ذلك ، لن تدع صديقتها تتعذب «ستطلب من زوجها أن يبحث عني».

سرعان ما انطفأ الشعاع قبل أن تتم الجملة في رأسه، إن كان يضمن أن تفعل فريدة المستحيل من أجله، فإنه لا يضمن أن تغامر ثريا باستقرارها «بأية صفة ستتحدث عني لزوجها؟» صديق فريدة؟ الأرملة؟ وما حدود هذه الصداقة؟ وما حدود معرفتك أنت بالعلاقة بينهما؟

«كيف يمكن أن ترد على زوجها لو سألها عن فريدة وعني؟» إن أنكرت، سيبحث الضابط في الملفات ويجد كل شيء، وستنتهي

حياتها الزوجية، وتشيع الحكاية وتتعقد حياة فريدة وتنتزع عائلة المرحوم الطفلتين منها.

تمنى أن يُقدم أحد المارة على الحماقة التي أقدم عليها. أراد أن يأتنس بآخر، ربما تمكن من تبادل كلمات معه تقلل من اضطرابه، وربما اقتنع سادة هذا المكان أنهم مسئولون بشكل ما عن ورطته؛ فهم الذين تركوا البونسيانا تنمو وتزهر وتنثر زهورها على هواها، وهم الذين تركوا القطط والعصافير تلهو بحرية على أرضهم وتحت سمائهم الحمراء الخفيضة في صباح جميل كهذا. كل هذا الجمال المتروك دون تحذير من التصوير هو الذي أوقع به مثلما يوقع بغيره من المارة.

لكن أحدًا لم يخطئ حتى بالمرور من فوق الرصيف. هل من المعقول أنه الوحيد الذي يجهل طبيعة هذا المكان؟ أم أن وقوفه بين مسدسين يتدليان من خصري الربعتين هو ما ينبه الآخرين ويجعلهم يبتعدون عن الرصيف؟

«سينتهي كل هذا، كل العروض لها آخر» فكَّر، وأغمض عينيه يستحضر لحظاته الحلوة مع فريدة، أُثير أنفه بفعل ضغط الشمس على جفونه المغلقة؛ فعطس عطسة حقيقية هذه المرة. فتح عينيه، وبحث في جيبي بنطلونه عن منديل نظيف ولم يجد. مسح أنفه بالكفن المكور في راحته دون أن يضغط حتى لا ينضح دم الذبابة أو ماء البصقة المفتعلة إلى الطبقة الخارجية، ثم دسه في جيبه. رمقه أحد

الربعتيـن بامتعاض، بينما كان الآخر مسـتغرقًا بالنظر إلى مركب نزهة يعبر النيل، وتصل أغنياته مشوهة بفعل الريح.

أعاد إغماض عينيه، ومدَّد فريدة في خياله، شرع في ترصيع ظهرها بالقبـلات من منبت شـعرها حتى القدم، لكنه لم يحصـل على الغبطة التي يستشـعرها من تفززاتها التلقائيـة التي تجعل ظهرها يتموج تحت شفتيه ويديه بحركة رهيفة تشبه موج النيل في يوم صاف.

فتـح عينيه مختلسًـا نظرة إلى داخـل الفناء، رأى الممشـوق قادما، لكنه توقف قبل البوابة، وأشار بتلويحة استدعاء:

ـ أدخلاه.

قالت يد الممشـوق؛ فدفعه الربعتان نحو البوابة وسـارا خلفه حتى وصلـوا إلـى الممشـوق الذي اسـتدار ومضـى أمامهم صـوب أصغر المبانـي الثلاثـة التـي يضمها الفناء. حاول سـامي أن يحتـوي المكان بنظرته ليتعرف على علامة تنبئ عن هويته، لم يلمح لافتة واحدة على أي من المباني.

أمـام البـاب الخفيض الذي لا يتناسـب مـع جمال المبنـى الظاهر للعابريـن، رفـع الممشـوق يده مشـيرًا للربعتين بعدم التقـدم بعد هذا الحد، وأشـار لسـامي كي يتبعه في ممر معتم، انتهى إلى غرفة صغيرة أكثر عتمة، حيث يجلس كهل نحيل خلـف مكتب صغير يبدو مكتب صبي، لا يكاد يسع شاشة كمبيوتر وأباجورة تضيء الكيبورد.

بعد أن اعتادت عيناه العتمة، رأى تليفونه على المكتب.

سأله الكهل النحيل:

ـ سامي يعقوب؟

ملأ صدره بالهواء، وطافت بخياله حكايات أبيه كلما عاد من حبسة، كيف كان يقاوم محاولة المحقق الأولى لكسر معنوياته.

رد:

ـ سيادتك تعرف.

تجاهل النحيل رده، ومد يده بالتليفون للممشوق، وأمره:

ـ دعه يفتحه.

تلقف الممشوق التليفون، ومده نحو سامي.

وضع بصمته، فانفتح التليفون. فاجأته ثلاثة إشعارات بمكالمات فائتة من فريدة فارتجف. لم يدعه الممشوق لهواجسه، وأمره مجددًا:

ـ افتح الكاميرا.

لمس سامي تطبيق الكاميرا، وبدأ في استعراض الصور، والممشوق غارز نظرته فيها. من خلال مطالعته للصور، أحس أنه يعود إلى لحظاته الجميلة، أخذت أصابعه تبطئ في التقليب، بينما يتناقص إحساسه بوجود الرجلين. لقطة بعد أخرى وجد نفسه ينعتق من ضيق المكتب، مرة يجد نفسه على شاطئ النيل وقت الغروب، مرة وسط معرض زهور الربيع في حديقة الأورمان، مرة بالقرب من

فراشة غسق ساكنة داخل زهرة خُبيّزة، مرة أمام كلب مستلق برأس مطرق كأنه يفكر، حتى وصل إلى صخب احتفالات الأمس في شارع جامعة الدول. رأى الصور الملتقطة في لحظات متباعدة وكأنها حياة متصلة من الغبطة، أعاده منها النحيل:

ـ صورك السابقة لا تدل على أنك مهتم بتصوير المباني.

قال دون أن يرفع رأسه المجلل بالبياض عن شاشة الكمبيوتر أمامه، ورد سامي:

ـ سيدي، كنت أصور زوج قطط، وليس المباني.

ـ أي قطط؟! الصور للمبنى.

ـ ها هي يا سيدي، ها هي.

قال موجهًا كلامه للنحيل، بينما وجه يده بالتليفون إلى الممشوق الواقف بجواره، وشرع في تكبير الصور على الشاشة، وهاله مرة أخرى سواد القطة.

استأنف:

ـ ها هما القطان.

بدت الرعشة في صوته، وتطلَّع في العتمة إلى وجه النحيل، ثم التفت نحو الممشوق، الذي علَّق:

ـ لم تقل هذا عندما سألتك!

ـ ارتبكت. في الواقع خجلت، لأنني أصور القطين في حالة... أقصد ما يفعله القطان.

أعتمت شاشة التليفون، فأمره الممشوق:

ـ افتح.

أعاد فتح التليفون دون امتعاض، وأخذ في استعراض الصور من البداية بسرعة أكبر مما فعل في المرة السابقة، عندما وصل إلى صور الاحتفال بالنصر الكروي، أشار له الممشوق كي يبطئ الكر.

اضطرب قلبه وقد انتبه إلى الفيديو الذي التقطه أمس دائرًا على كعبيه ليُظهر ضخامة الحشود، كانت فريدة بجواره، هل ظهرت في الفيديو دون أن ينتبه؟ أخذ يزيح اللقطات بأصابع مرتعشة، حتى وصل إلى نهاية صف الصور، فهتف مخاطبًا الممشوق:

ـ ها هي القطط، قطط..

رد النحيل:

ـ احتفلت أمس بفوز المنتخب؟

تأكد أنهم دققوا كل الصور، مع ذلك أحس أنه وجد أخيرًا ما يجمعه مع هؤلاء الناس، المشكلة أنه لا يفهم في الكرة، حتى يفتح طريقًا لحديث أطول.

هتف متحمسًا:

ـ نعم يا فندم، من كان بوسعه أن يتجاهل هذه الفرحة؟

ـ أجب على قدر السؤال.

رد الرجل؛ فأضاء سامي الشاشة مجددًا، وتوقف على الصور الأخيرة.

خاطب الممشوق بينما يُشهده على الشاشة:

ـ ها هي.

أخذ في تكبير صورة القطط الأولى.

ـ انظر يا باشا زوج القطط؟ رغم أنني لا أحب القطط، ربما صورتهما لأنني كنت سعيدًا.

لم ينبس الممشوق، وسأله النحيل:

ـ ولماذا أنت سعيد؟

يعرف هؤلاء الناس كيف يوجهون الأسئلة المباغتة، ماذا وراء هذا السؤال؟ هل يعرفون أنه كان ذاهبًا إلى فريدة؟!

كرر الرجل السؤال:

ـ لماذا أنت سعيد يا سامي؟

استبشر عندما سمع اسمه بنبر هادئ. أحس بألفة حقيقية توشك أن تولد، تمنى أن يكون في حياة النحيل «سامي» آخر يحبه؛ صديق، ابن، حفيد، أخ.

قال مستأنسًا:

ـ سيدي، استيقظت سعيدًا بفرحة الأمس، كما أنني أحيانًا أستيقظ سعيدًا دون سبب، وأحيانًا عندما أقرأ فكرة جميلة أو أشاهد فيلما، أو أتأمل فراشة، أنا أحب الفراشات جدًا جدًا.

كانت الكلمات تتدافع مضطربة من فمه، بينما بدا النحيل ساهمًا، كأنه نسي سؤاله، فاستشعر سامي الحرج، وتوقف فجأة.

قذفه النحيل بسؤال آخر:

ـ ماذا تعشيت أمس؟

ـ سمك.

هكذا قال. كان ناسيًا تمامًا، ولم يحب أن يبطئ أو يتلعثم، لكنه تذكَّر بعد أن أجاب أنه تعشى بيتزا، وأصرت فريدة أن يأخذ ما تبقى «ستجوع ليلًا، صدقني» قالت له هذا بعد أن كانت قد طلبت تغليف ما تبقى أمامهما، ولم يشأ أن يجادلها أمام النادل، هو لا يجادلها أصلًا أصلًا. في الشارع أكد لها أنه لن يجوع، وأعطى الصندوق لأول كنَّاس مرا به.

بدا النحيل، وكأنه يعرف الحقيقة؛ فسأله عن اسم المطعم، ولم تسعفه ذاكرته بعنوان مطعم للسمك، فغمغم دون أن يجيب، لأنه لو ذكر مطعمًا بالاسم، فربما يستجوبون العاملين به الذين سينكرون أنهم رأوه، وسيجعلهم ذلك يتحرون عن المطعم الحقيقي، ويعرفون

أنه كان برفقة امرأة، وفريدة هي آخر إنسان في العالم يمكن أن يتسبب له بالأذى.

لم يُصرَّ الرجل على معرفة اسم المطعم، وشعر سامي بالارتياح. ملأ صدره بالهواء، وسمع النحيل يأمره:

ـ امسح الصور.

أمره الرجل بهدوء، فشرع في مسح الصور بالتتابع من تطبيق الكاميرا تحت نظر الممشوق، وهمَّ بوضع التليفون في جيبه؛ فأشار إليه الممشوق «هات التليفون» أخذه، وفتح الذاكرة، وأزال الصور الثلاث ومقطعي الفيديو من ملف المحذوفات الحديثة. حاول سامي أن يتكلم ليؤكد أنه لم يشأ المغالطة والمضي بالصور في سلة مهملات الذاكرة، لكن النحيل جعل هذا التوضيح غير ضروري، إذ رفع رأسه باتجاههما، وأمر الممشوق:

ـ أعطه تليفونه.

ثم وجه كلامه لسامي:

ـ أحببنا فقط أن نتعرف عليك.

ـ شكرًا يا فندم.

أجاب، وتناول تليفونه من الممشوق، وهمَّ بالانصراف، لكن النحيل استوقفه.

ـ خذ بالك، عليك حكم تبديد في الفيوم يوم 3 فبراير 2011، في أية مناسبة أخرى قد يخرج هذا الحكم.

اليوم الأكثر إعتامًا في حياته محفور في ذاكرته بكل لحظة فيه، ما تبدد في ذلك اليوم كان حياة يوسف، ولم يكن لديه الوقت لتبديد أي شيء آخر. وأين؟ في الفيوم التي لم تطأ قدمه أرضها أبدًا؟! لم يهتم بمعرفة عقوبة التبديد، ولم يسأل عن الشيء الذي بدده. تعالى على كل خوفه، وسأله:

ـ هذه القضية، قديمة أم أضيفت الآن؟

وأحس بالرضى، لأنه قفز من موقف المستجوَب إلى كرسي المستجوِب. تذكر أسئلته عندما كان صغيرًا. لم تكن كلها بريئة. ربما بدأت بريئة، لكنه أصبح يتمادى فيها بعد أن اكتشف أنها تجلب له السعادة، وكلما عصَّبت أليس كانت سعادته تزداد.

لكن النحيل لم يغضب أو يتعصب. رد بهدوء:

ـ كيف سنضيفها؟! اكتشفناها الآن، بينما كنا نبحث عنك.

أعاده ببساطة إلى موقعه كمستجوَب، واستل ورقة من الوراقة التي أمامه، كتب عليها بالخط الأحمر رقم المحضر وتاريخه، وناولها له:

ـ لك أن تتصرف كما يحلو لك. مع السلامة.

لم يرد، واستدار متأهبًا للانصراف، استبقه الممشوق ومضى به عبر الممر المعتم، وعلى باب المبنى كان الربعتان لا يزالان واقفين، تركه الممشوق لهما، وبغمزة من عينه أمرهما باصطحابه إلى البوابة.

مضى بينهما على سجادة الزهور، اختلس نظرات سريعة في كل الاتجاهات، يبحث مجددًا عن القطين، ومجددًا لم يعثر لهما على أثر، ورأى رشح المجاري على الجدران الخلفية للمباني التي أبهره جمال واجهاتها، تطلع إلى أغصان البونسيانا فوق رأسه. وجد الأوراق مغبرة، ككل أوراق الشجر في المدينة. تأكد أنه لم ير هذه الأشجار والمباني والقطط جميلة، إلا لأنه كان سعيدًا، وهذه الأشياء هي القشة التي نكشت سعادته، مثلما يداعب فراشة مستلقية تحت الشمس ليحضها على الطيران.

عندما وضع قدمه الأولى على الرصيف خارج المبنى، لم يجد في روحه أثرًا للشغف الذي استيقظ به. يدرك أن فريدة بعض من روحه، لكن حبه صار ثقيلًا مثل ساق خدرة لا يحسها الآن. أحس أن كل ما يريده هو المضي بعيدًا بأسرع ما يمكن. لمح تاكسي قادمًا. ارتفعت يده تلقائيًا لإيقافه بحركة لا تكاد تُرى. لا يعرف كيف رأى السائق إشارته المنهكة من داخل عربة مسرعة. توقف فورًا حتى ارتفع صوت احتكاك العجلات بالرصيف. فتح بابه، ونزل مهرولًا. فتح له الباب الخلفي، ثم أغلقه وراءه لاهجًا بالترحاب، وهرول ليجلس مجددًا وراء عجلة القيادة.

بدأ بالتحرك مستفسرًا عن الوجهة.

- جاردن سيتي.

قال سامي، الذي ظل مكومًا لصق الباب، لا يقوى على الإفساح لنفسه. أغلق التليفون ودسه في جيبه. جعله الإنهاك يخشى سقوط رأسه على صدره؛ فألقى به للخلف، وتشبث بيده بالمقبض أعلى الباب. أخذ السائق يتلصص عليه بنظرات خاطفة في المرآة، وعندما تأكد أنه ليس نائمًا، قال:

ـ كان الله في عونكم يا باشا.

لم يرد سامي، كان يقبض على جيب بنطلونه مقيدًا تليفونه، الذي صار بالنسبة له في منزلة العدو. لابد أنه موصول بأجهزتهم الآن، ولابد أنهم ينتظرون أول مكالمة ستأتيه، ويرصدون ردوده. أحس ببعض التشفي في الخذلان الذي يحسونه من إغلاقه. لو فتحه الآن سيستقبل صوت فريدة، وأول ما ستبادره به «ماذا حدث؟ لماذا لم تأت» ماذا عساه أن يقول؟ إن كذب عليها سيعرفون أنه خائف ويتسلون به؟ وإذا قال الحقيقة سيعاقبونه على التعريض بهم؟ والأخطر أن علاقته بها ستكون مرصودة.

حرّك رأسه يسارًا ينظر إلى النيل، رأى سطحه الرمادي ساكنًا وكئيبًا كالأسفلت، ورأى كبائن السكن والمطاعم العائمة متداعية ومبتذلة.

عاود السائق تلصصاته الخاطفة، وقال:

-يبدو على سيادتك عدم النوم. في بلدنا الكثير من الجهلة الذين لا يعرفون ما تبذلون من جهد.

عبرت السيارة حفرًا في الرصيف لا يمكن تفاديها، فاهتز رأس سامي، وتصور السائق أنها إيماءات استحسان لما يقول، فتمادى:

ـ لا يعرفون أنهم ينامون وينفخون بطونهم بفضل سهركم.

لم يظفر برد؛ فافتعل اهتمامًا مضاعفًا بالطريق، وقال معلقًا على تاكسي آخر انعطف باتجاهه دون إشارة:

ـ ناس خسارة فيهم الرخصة.

أخذ سامي يستعيد إحساسه بنفسه «لماذا لم تعاود فريدة الاتصال؟» أخرج التليفون وفتحه. تفقد المكالمات الفائتة فلم يجد جديدًا. أغلق بسرعة ودسه مجددًا في جيبه. «ما أدراني أنهم لم يردوا على مكالماتها الثلاث عندما كان التليفون في أيديهم؟» هل يعني إشعار عدم الرد أنهم لم يردوا؟ «لابد أن لديهم تقنية تمكنهم من الرد على الخط دون أن ألحظ ذلك» فكَّر في الاحتمال الأبسط؛ أن يكونوا قد طلبوها من رقم آخر بعد أن عرفوا أنها حبيبته من اسم التدليل «ريدا» الذي سجلها به على الهاتف.

صار التاكسي على كوبري الجلاء، وانتهكته الشمس من كل اتجاه. خطف السائق نظرة أخرى عبر المرآة، وقال:

ـ هل رأيت سيادتك مباراة الأمس؟ ربنا يجعل أيامنا كلها انتصارات ويكفينا شر...

قطع جملته على نحو مفاجئ بعد أن رأى الضيق في وجه سامي، لكنه لم يكن ضيقًا، كان خوفًا يتمدد ليشمل صديقات فريدة مجددًا. «صارت أرقامهن تحت المراقبة الآن، ولم يرتكبن أي ذنب سوى أن لهن صديقة تحبني» ليس هناك أسوأ من أن تجد إحداهن نفسها في ورطة بسبب وجود رقمها على تليفون رجل لم تره ولم تعطه رقمها بنفسها. منذ أقل من شهر، طلب من فريدة أرقامهن بعد الفزع الذي تعرض له عندما واصل طلب رقمها لساعات دون جدوى.

الآن «محفل الأنوثة» المثير لإعجابه صار في خطر بسببه. ماذا يمكن أن يفعلوا بأرقامهن الآن؟ هل ظهر في حياة فريدة ليدمر صداقة أثارت إعجابه؟

تذكّر حلمًا رآه عندما غفا بالميدان في تلك الليلة المشئومة. لم يتوقف أمامه أو يتحير في تفسيره عندما استيقظ، ولم يتذكره بعد ذلك أبدًا كأنما عن عمد، لكنه عاد الآن واضحًا. **عندما بدأ تساقط المعتصمين بالرصاص المجهول، وجد سامي نفسه أمام العمارة رقم ستة في صف العمارات المُطل على الميدان. أضاء الرقم ذاكرته، وتذكَّر أن ماريان، زميلة المدرسة الطفلة التي أحبها في صمت طوال المرحلة الابتدائية قبل أن تنتقل إلى مدرسة أخرى. كانت تسكن في تلك العمارة. حضر عيدي ميلاد لها. تذكَّر أسرتها، وتفاصيل الشقة تمامًا. تطلع إلى الشرفة التي وقف فيها ذات يوم وتمنى أن تُطل ماريان وتدعوه مع يوسف ليصعدا.**

عندما أغمض عينيه فوق النجيل الرطب لدائرة الميدان رأى نفسه في شقة لا تشبه شقة ماريان مع صبي بدا ابنه ومجموعة من الأصدقاء أحدهم عائد من الخارج، كانوا جميعهم متعبين، متحللين من أحذيتهم مستلقين على الكنبات والسجاد. سأله العائد من الخارج:

ـ هذه شقة صديقتك؟

ردَّ عليه:

ـ شقة صديقة صديقتي.

سمع صوت المفتاح في باب الشقة، فاعتدل. دخلت الصديقة التي لم يرها من قبل. خطت خطوة وتوقفت بعد فرجة الباب التي تسعها بالكاد، ثم تراجعت مندهشة من عدد الرجال النائمين في شقتها. تراجعت وجذبت الباب ووقفت بالخارج. فهم أن عليه إيقاظ النائمين. أخذ يستعجلهم لارتداء أحذيتهم، ودفعهم أمامه واحدًا واحدًا حتى ابنه، وأخذ يتلفت ليرى إن كانوا قد نسوا وراءهم شيئًا من أغراضهم حتى لا يترك أثرًا رجاليًا في شقة صديقة صديقته. وجد أنهم كانوا على وشك نسيان حذاء، عرف أنه له. لم يجد وقتًا ليتعجب «كيف أتيت بحذاء زيادة عما في قدميَّ؟!» لكنه خرج، ولم يجد المرأة أمام الباب كما توقع، هرول وراء أصحابه على سلم طويل لعمارة بلا مصعد، من هرولتهم التي طالت على السلم قدَّر أنهم كانوا في الطابق السابع على الأقل.

**عندما استيقظ، اعتبر أن الحلم مجرد تفسير لأمنية خروجه من الميدان التي تمناها في يقظته، ولم يتوقف أمام التفاصيل، بما فيها أن يكون لديه ابن، بدا في الحلم أنه يخرج معه كصديق.**

اقترب التاكسي من الفندق الضخم على النيل، أشار للسائق بالتوقف، نظر في العداد، وأخرج المبلغ من جيبه.

ـ لا سمح الله يا باشا؟! هذا أقل واجب، ربنا يحرسكم.

قال السائق، ورد يد سامي برفق، ثم انحنى وفتح التابلوه دون أن يتخلى عن النظر في المرآة. التقط ورقة مطبوقة، ثم فتح بابه وترجل مهرولًا. فتح لسامي وظل واقفًا خلف فتحة الباب، كدرع تحميه وتتيح له الترجل في مأمن من السيارات المسرعة القادمة.

مد يده بالورقة مطبوقة نحوه مترددًا:

ـ عندي ولد، حقوق، وبنت حاسبات ومعلومات يا فندم، قل البنت مصيرها تتزوج رجلًا يحمل مسئوليتها، لكن الولد...

فتح الورقة، وقرَّبها أكثر من سامي. صورة ضوئية من شهادة تخرج الشاب، وعلى طرفها رقم التليفون وعنوان السكن بقلم أزرق.

ـ الحمد لله مستورة، لو عليَّ لن أكلَّ بابني أو أشكو، لكن الولد نفسيته ساءت من القعدة في البيت، خمس سنوات يا باشا. ولد مستقيم يا فندم لا يعرف قهوة ولا سيجارة.

تناول سامي الشهادة من يده، وضغط في كفه ثلاثين جنيهًا، فلم يقبل الرجل إمساكها.

ـ أستغفر الله يا باشا.

كانت السيارات في الخلف تنبح ضيقًا من وقفة التاكسي في الطريق المزدحم. طوى سامي الشهادة ودسها مع النقود في جيبه.

قال الرجل:

ـ الأمل في ربنا وفي سعادتك يا باشا.

لم يجد ما يرد به. مد يده ليد السائق الممدودة للمصافحة، ثم مضى بجوار الفندق، وانعطف يسارًا فيمينًا، فيسارًا مرة أخرى، حتى صار أمام عمارته. مرق من الباب، ورأى أبو شفيع نائمًا يُشخِّر، ولم يصادف أحدًا من السكان في المدخل.

رغم الإرهاق، لم ينتظر المصعد، اتجه إلى السلم، وأخذ يعد الدرج. على بسطة الطابق الأول، لمع شيء في العتمة بين سلة قمامة والجدار. برزت قطة سوداء لم يرها في العمارة من قبل، حدَّقت فيه، ثم تسحبت هابطة في هدوء، تمسح غبار السلم بذيلها المنكس بين ساقيها.

استأنف صعوده مهرولًا. وصل لاهثًا. تشبث بالمقبض ووضع المفتاح، أعد التكات الثلاث، ثم دفع وانساب إلى الداخل، أغلق

الباب وراءه، ووضع المفتاح في القفل من الداخل وعد التكات الثلاث مجددًا وتركه في مكانه. خطا نحو الكنبة، واستلقى مهدودًا.

أخذ يتنفس بعمق، مستقطرًا الأمان من هواء شقته مُحكَمة المنافذ، لكن الخوف كان يتسرب إلى قلبه مجددًا مع الشهيق مثلما ترتد المياه المزاحة إلى داخل حمام سباحة ممتلئ من خلال شبكة التصريف عند الحافة.

مد يده إلى جيب بنطلونه الخلفي، أخرج محفظة النقود، واستل منها الورقة الصغيرة التي تحمل رقم وتاريخ قضية التبديد، أخذ يتأملها بأسى، لا يعرف إن كانت ملفقة له أو كانت تخص شخصًا يتشابه معه في الاسم «ماذا عليّ أن أفعل؟» فكَّر أنه سيجلب الأذى لنفسه إن بدأ بالنبش، وسيبقى قلقًا تحت رحمة استدعاء مفاجئ إن تجاهل الأمر.

دون أن يهتدي إلى رأي طوى الورقة بعناية، وأعادها إلى مكانها في المحفظة، وعاد للتفكير بفريدة. يريد أن يطمئن عليها. لماذا لم تتصل مجددًا؟ غاضبة؟ خائفة؟

روحه المجهدة لم تقو على التفكير بمهاتفتها «هل أفتح التليفون وأنتظر اتصالها أم الأصوب أن يبقى مغلقًا؟» فكَّر وفاض تشوشه «لكن ذلك سيثير قلقها، وسيدفعها للمجيء» وسيكون ذلك أخطر من أية مكالمة ومن كل الصور. ربما يكونون قد أرسلوا في إثره من يراقب شقته.

تحسس التليفون في جيبه، ثم سحبه فخرج مع بطانة الجيب وسقطت شهادة ابن سائق التاكسي وكفن الذبابة الورقي الملوث بآثار كحة مفتعلة وعطسة حقيقية. ضغط زر تشغيل التليفون وأخذ يتابع عودة الجهاز إلى الحياة.

امتدت يده إلى تطبيق الكاميرا، وأخذ يراجع الصور. يتأمل كل صورة ليرى إن كانت تنطوي على أية درجة من الخطورة.

انطلق رنين التليفون فانتفض. كان اسم «ريدا» يومض على الشاشة. لم يجرؤ على الرد. أخذ الرنين يتصاعد حتى انتهى.

ملأ صدره بالهواء لكنها عاودت الاتصال، وعاد الرنين لحوحًا مسيطرًا مرة ثانية؛ فثالثة. ألغى الصوت. بعد لحظة عاد الوميض. طفت فوق وجهه ابتسامة تائهة بينما يتابع انتفاضات التليفون.

## صدر للكاتب

1. حدث في بلاد التراب والطين (قصص) ـ القاهرة ـ 1992.

2. مدينة اللذة (رواية) ـ القاهرة ـ 1997.

3. مواقيت البهجة (قصص) ـ القاهرة ـ 1999.

4. الأيك في المباهج والأحزان (نصوص) ـ القاهرة ـ 2002.

5. غرفة ترى النيل (رواية) ـ القاهرة ـ 2004.

6. الحارس (رواية) ـ القاهرة ـ 2008.

7. كتاب الغواية (رسائل) ـ 2009.

8. ذهب وزجاج (بورتريهات) ـ 2011.

9. بيت الديب (رواية) ـ 2011.

10. العار من الضفتين.. عبيد الأزمنة الحديثة في مراكب الظلمات (صحافة استقصائية) ـ القاهرة ـ 2011.

11. البحر خلف الستائر (رواية) ـ 2013.

12. السماء على نحو وشيك (قصص) ـ القاهرة ـ 2015.

13. يكفي أننا معًا (رواية) ـ القاهرة ـ 2017.

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

عندما وقعت عيناه على فريدة أول مرة جمَّدته الدهشة «لقد عشت هذا من قبل» وأحس أن الحياة عادت عرضًا لطيفًا وأنه لم يفقد ملَكة رؤية الأشياء قبل وقوعها.

كان متأكدًا من أنه يرى النداء الذي أطلقه ذلك الوجه من قبل. استشعر شيئًا حارًا، أقوى من الألفة التي كان يستشعرها بصحبة الإناث. وعندما دعاها بعد ذلك إلى شقته للمرة الأولى، جلس بجوارها على الكنبة يبتسم بعصبية، كان يحس نفسه مخادعًا، وأنها لم تقبل الدعوة إلا بدافع الإشفاق عليه من وحدته التي بالغ في وصفها، لكنها هي التي قبَّلته أولًا.

---

روائي مصري. ولد في 23 ديسمبر 1961، تخرج في كلية الإعلام بجامعة القاهرة عام 1983. فازت روايته "بيت الديب" بجائزة نجيب محفوظ عام 2012 وصدرت مترجمة عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وصدرت ترجمتها الصينية عام 2017 عن دار الحكمة. تُرجم له إلى الإيطالية كتاب "العار من الضفتين" ورواية "مدينة اللذة". وصلت روايته «يكفي أننا معًا» إلى القائمة القصيرة لجائزة الشيخ زايد عام 2017.

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

9 789777 952170

الدار المصرية اللبنانية

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com